العشرة المبشرون بالجنة

رضي الله عنهم

د. حامد بن أحمد الطاهر البسيوني



الطبعة الأولى :
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٧٠٣٦ / ٢٠٠٧

الناشر
مكتبة الأصولي دمنهور
☎ ٠٤٥٣٣١١١٣٨ - ٠١٠٥٤٠١٣٢٤
دمنهور - خلف عمر أفندي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، أشهد أن لا إله إلَّا اللّهُ وأن محمدًا عبده ورسوله ، أمّا بعد :

فإذا ما تخيَّرَ المرء بعد سيرة الأنبياء والرسل سيرة أخرى طاهرة لا غبش فيها ، ولا عيب ، ولا عوج ، ولا أمتًا ، فإنما هى سيرة صحابة النبى صلى اللّه عليه وسلم ، وأفضلهم العشرة المبشرون بالجنة الذين جعلهم اللّه تعالى فى مقدمة الصحب الكرام ، فمنهم الصديق صاحب الرسول الكريم ﷺ ورفيق الغار ، ما طلعت الشمس ولا غربتْ على خير منه من بعد الأنبياء والرسل .

ثم الفاروق الذى يهابه الشيطان ويخشاه ، أسد اللّه فى أجمة الإيمان العامرة بالخلق ، والحزم والقوة .

وعند عثمان تتوقف الخُطى تنظر الرِفْقَ والرِّقَّة ، والخير الفيَّاض من نهر العطاء ، الذى جاد بنفسه للّهِ لئلا تُراق قطرةُ دم من أجله .

ويقف المرء مشدوهًا أمام على - رضى اللّه عنه - ملحمة العلم والإيمان.

ومع شجاعة الزبير وسعد ، ودعوتهما المجابة تتواصل المسيرة التى لا تتوقف حتى تلقى طلحة وسعيد وأبا عبيدة ، وابن عوف رضى اللّه عنهم جميعًا .

كان الحديث الذى جمع هؤلاء جميعًا حديث سعيد بن زيد - رضى اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ :« اثْبُتْ حِراءَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » . فقيل له : مَنْ هُمْ ؟

فقال : رسولُ اللّهِ ﷺ وأبوبكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن مالك ، ثم سكت سعيد ، فقيل : ومَنِ العاشرُ ؟ قال : أنا[1] .

---

(١) صحيح: أبو داود (٤٦٤٨) فى السنة ، وأحمد وغيرهما ، وصححه الألبانى.

وقال سعيد بن زيد رضى اللَّه عنه : أشهدُ أنِّى سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ :

« رَسُولُ اللَّهِ فِى الْجَنَّةِ ، وأَبُو بَكْرٍ فِى الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِى الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِى الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِى الْجَنَّةِ ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ فِى الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِى الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِى الْجَنَّةِ ، وَسَعْدٌ فِى الْجَنَّةِ » . ثم قال : إِنْ شِئْتُمْ أَخْبَرْتُكُمْ بِالْعَاشِرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ نَفْسَهُ[١] .

وسوف يأتى فى داخل الكتاب عدة روايات لهذا الحديث العُمدة فى تعيين العشرة رضوان اللَّه عليهم . على أن الدرس الأساس يبقى دائمًا فى سيرة هؤلاء الكرام التى لا غنى لمسلم عنها .

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ   إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلَاحُ

فاللَّهُمَّ أَلْحِقْنَا بهم على خيرٍ ، واغْفِرْ لنا زلَّاتِنا ، وما كان من تقصير .

وكتبه

أبو أنس

حامد بن أحمد الطاهر البسيونى

---

(١) صحيح : السابق (٤٦٤٩) بتصحيح الألبانى فى موضعه .

[١] أبوبكر الصديق رضى اللَّه عنه

إنه الأول فى كل الاختبارات والامتحانات ، إنه الأول فى الإسلام ، وقبوله الأول فى الصحبة والصداقة ، الأول فى الهجرة مع النبى ﷺ ، الأول فى النفقة ، وتحمل أعباء الدولة الإسلامية وخدمة النبى ﷺ ، الأول فى الاتباع للمصطفى ، الأول فى الصيام ، الأول فى دخول الجنة ، والأول فى رفعة المكانة بعد الأنبياء ، الأول فى الطاعات من صيام وعيادة مريض واتباع الجنائز ، وإطعام المساكين ، الأول فى الخلفاء الراشدين رضى اللَّه عنهم جميعًا .

إنه باختصار مضرب المثل فى القدوة والصورة الحية فى تنفيذ الأحكام الشرعية والانقياد لها .

وإن من المحافظة على الإسلام المحافظة على سيرة هؤلاء الصحب الكرام ، فهم حملته المدافعون عن حياضه ، الذين حملوا مشعل الهداية ، فنشروا الضياء على سماء الأرض ، وأبلغوا الرى إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ومن غفل عن سيرة جده وأبيه الصالحة ، فلا قيمة له فى مضمار العزة والفخر والانتساب للخير .

وبسيرتهم تحيا القلوب ، وتنبعث فى نفوسنا قوة واستعلاء على الباطل ، إنه بطل الإسلام الأول أبوبكر الصديق ، واسمه عبد اللَّه بن عثمان ، لم يؤثر عنه أنه شرب فى الجاهلية خمرًا ، ولا جُرب عليه كذبًا ، ولم يأكل ربًا ، ولم يسجد لصنم قط ، إنه منذ أيامه الأولى يُشهد له بالخير ، والناس معادن خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، ولقد كان معروفًا فى الجاهلية باسم عبد الكعبة ، ثم عبد اللَّه فى الإسلام[١] .

ثم جاء الوحى للنبى ﷺ وأُمر بالدعوة سرًّا ، ولقرب أبى بكر من محمد ﷺ سارَّه النبى ﷺ بدعوته فوجد منه ما قاله ابن إسحاق ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلَّا كانت عندَه كبوةٌ وتردد ونظرٌ ، إلا أبا بكر ما عَكَمَ عنه حين ذكرته ولا تردَّدَ فيه » . وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن أبا بكر صاحب رسول

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٢٠)، و"تاريخ الإسلام" للذهبى (٣/ ٩٤).

اللَّه ﷺ قبل البعثة ، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن صحبته وكرم أخلاقه ما يمنعه من الكذب على الخلق ، فكيف يكذب على اللَّه ؟! ولهذا بمجرد ما ذكر له أن اللَّه أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم ولا عكم - تردد-.

إذا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِى ثِقَةٍ فاذْكُرْ أخاكَ أَبَا بَكْرٍ بِما فَعَلا
خَيْرَ البَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلها إِلَّا النَّبِى وأوفاها بما حَملا
الثانى التالى المحمودَ مَشْهَدُه وأوَّلَ النَّاِس حقًّا[١] صدَّق الرُّسُلا

فهذا الرجل الوديع السمح الأسيف - رقيق القلب البَّكَاء - السريع إلى التأثر ، وإلى مشاركة البائس فى بؤسه ، والضعيف فى ضعفه ، تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ، ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال ، وفى إبراز ملكاتهم ومواهبهم ، وفى دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم من قوة ومقدرة[٢].

الدعوة الآن سرية ، والعدد قليل ، ونفوس المؤمنين تغلى بأعمال البر ، وهذا ما حدث مع اللحظات الأولى فى الدعوة ، فعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا ، أَلَحَّ أبوبكر على رسول اللَّه ﷺ فى الظهور ، فقال : «يا أبا بكرٍ إنَّا قليل» . فلم يزل أبوبكر يلح حتى ظهر رسول اللَّه ﷺ ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته ، وقام أبوبكر فى النساء خطيبًا ، ورسول اللَّه ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى اللَّه وإلى رسوله ﷺ ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضُربوا فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا ، ووطئ أبوبكر ، وضرب ضربًا شديدًا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا

(١) انظر «الأوائل من الصحابة» لرضوان رضوان الباب الأول.
(٢) «أبوبكر الصديق» لمحمد حسين هيكل (ص٦).

يشكون فى موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد ، وقالوا : والله لئن مات أبوبكر لنقتلن عتبة بن ربيعة . فرجعوا إلى أبى بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا ، وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه . فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ،وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت : هذه أمك تسمع؟ قال : فلا شىء عليك منها . قالت : سالمٌ صالحٌ . قال : أين هو؟ قال : فى دار ابن الأرقم . قال : فإن لله علىّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ . فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ . قال : فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله ، وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة ، فقال أبوبكر : بأبى وأمى يا رسول الله ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله ، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار ، قال : فدعا لها رسول الله ﷺ ، ودعاها إلى الله ، فأسلمت وأقاموا مع رسول الله ﷺ فى الدار شهرًا ، وهم تسعة وثلاثون رجلًا[١] .

فما أعظمها من لحظات تسجل ، كم كانت محبة هذا الرجل لهذا الدين ومحبته لنبيه ﷺ ومحبته لهداية الناس ورحمته فى أن يستنقذ الناس من النار ، ومما أُشربه

---

(١) «البداية والنهاية» (ج/ ٣ ص ٢٧).

وأدركه أبوبكر أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب متى تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الله ، وهذا مع ما يعنيه التحرك لوظيفة الأمة فى مجموعها ونصرة دين ربها والدعوة إليها .

لقد جيَّش أبوبكر بيته كله لخدمة الإسلام من أول يوم دخل فيه هذا الدين ، فخرج ودعا لسبيل الله سبحانه ، ورجع بكتيبة إيمانية قوامها ستة من العشرة المبشرين بالجنة ، أسلموا على يديه : عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، ثم أسلم غيرهم على يده ، وجهد ساعات على يد الصديق فتح أبوبًا على دعوة الإسلام على العكس من وجود دروس ومحاضرات ومؤلفات لم تصنع مثله ، إنه كما يقول بعض الأجلاء لنقص الإيمان ، ونقص الصدق فى القلوب[١].

ونبراسه وطريقه : لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير مما طلعت عليه الشمس. ثم مع هذا الجو لابد من وجود الضعفاء مع قوة أهل الشرك وانتشار الإيذاء ، فما الطريق لهذا العمل إلا أن يجود بماله ، إذن فيلفتح باب النفقة وليصبح ماله أيضًا فى سبيل الله كما كانت نفسه ، وهذه أعظم موعظة للبخلاء على دين الله ،والله الغنى ونحن الفقراء ، وصدق من قال فى هؤلاء :

أَرقيكَ أَرقيكَ باسمِ اللَّهِ أَرْقِيكا ... مِن بُخْلِ نَفْسِكَ عَلَّ اللَّهَ يَشْفِيكَا

وأسلم كفك إلا مِن تبارُكِها ... ولا عدوُّك إلَّا مَن يُرجِّيكا

لكن أبا بكر يعلم تمام العلم أن الأجر عند الله ، والخلف من الله ، فثواب فى الآخرة ، وخلف فى الدنيا ، وباب خير يعود على الإسلام ، وإعداد رجال على رأسهم بلال ، فلقد مر عليه يومًا وهو يُعذب ، فعن قيس قال : اشترى أبو بكر رضى الله عنه بلالًا وهو مدفون فى الحجارة بخمس أواق ذهبًا ، فقالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ، قال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. وعن عروة قال : أعتق أبوبكر سبعة ممن كان يعذب فى الله ، منهم بلال وعامر بن فهيرة[٢].

---

(١) «صور وعبر من حياة أبى بكر الصديق» لعلى القرنى (شريط).

(٢) رواه الطبرانى ورجاله إلى عروة رجال الصحيح «مجمع» (٩/ ٥).

بلغ من حب أبى بكر للنفقة أنه كن ما يسابقه أحدٌ إلا سبقه فى هذا المضمار الذى تعز فيه النفوس ، ويقل العطاء ، فعن عمر بن الخطاب قال : أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نتصدق ، ووافق ذلك مالًا عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا ، فجئت بنصف مالى . قال : فقال لى رسول اللّه ﷺ : «ما أبقيتَ لأهلك ؟» ، قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول اللّه ﷺ : «ما أبقيتَ لأهلك ؟» . فقال : أبقيتُ لهم اللّه ورسوله . فقلتُ : لا أسابقك إلى شئ أبدًا[١]. فإنا لله وإنا إليه راجعون ، هؤلاء يتسابقون فى هذا وغيرهم يتسابق فى النفقة على الأموات ، وأصحاب الأضرحة ، حتى لقد ضج الشاعر فقال :

أَحْيـاؤُنـا لا يُـرْزَقُـونَ بِـدِرْهَـمٍ وَبِـأَلْـفِ أَلْـفٍ يُـرْزَقُ الْأَمْـواتُ

فَمَنْ لِى بِحَظِّ النَّائِمِينَ بِحُفْرَةٍ عَلَى أَعْتَابِهَا تُقامُ الصَّلَوَاتُ

وأعتق من الجوارى : زنيزة والمهدية ، حتى لقد عاتبه أبوه ، قال موصيًا له بأن يشترى أقوياء يحمونه ، ويدافعون عنه ، فقال جملته الشهيرة : إنما أريد ما أريد لله . ونزل ما يزين ساحة أبى بكر ويرد ادعاءات الناس الذين يقولون : إن أبا بكر أعتق بلالًا ليد له عنده ، فقال تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل : ١٩-٢١] . ولقد عبر البعض فأحسن عن سر نفقة أبى بكر وعدم تحرجه ، فقال : لقد تعدى أبوبكر مرحلة جهاد النفس فى النفقة ، وصار لمرحلة التمتع واللذة بالنفقة ، والفرح بها[٢].

فأبو بكر لا يريد السمعة ولا الرياء ولا الشهرة ، إنما يريد اللّه من فعله ، وأنعم بها من رغبة وإرادة للخير رفعت منزلته.

عَاشَ حَمِيدًا لِأَمْرِ اللَّهِ مُتَّبِعًا بِأَمْرِ صاحِبِهِ المَاضِى ومَا انْتَقَلا

ولقد ضرب أبوبكر أورع الأمثلة فى اتباع النبى ﷺ فى كل صغيرة وكبيرة ،

---

(١) أبو داود (١٦٧٨)، والترمذى (٣٦٧٦)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) مجموعة أبى بكر الصاحب والصديق للدكتور/ راغب السرجانى.

واستمع لهذا الموقف الذى عُبر عنه بأنه المتبع للنبى ﷺ مائة بالمائة(١). قالت خديجة للنبى ﷺ لما رجع ترجف بوادره من الغار لما ضمه جبريل قالت : كلا واللَّه ، لا يخزيك اللَّه أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتُكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق(٢). ولتنظر الموقف إجارة أبى بكر من قِبل ابن الدغنة ، نفس هذه العبارات تكررت(٣) لكن فى وصف أبى بكر وإنَّ المرء ليتعجب لرؤية هذا النموذج ، فقد كان نفس الضوء والسيرة التى سار عليها النبى ، وكما قيل :

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ   إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلَاحُ

ثم تعلو مرتبة أبى بكر الصديق وتسمو لأكثر من هذا ، فعندما أسرى بالنبى ﷺ فى رحلته الشهيرة التى تحطم عليه كل مقاييس الدنيا فلننظر لصنيع أبى بكر الصديق رضى اللَّه عنه ، قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول اللَّه ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشًا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد إسلامها ، وبادر الصديق إلى التصديق ، وقال : إنى لأصدقه فى خبر السماء بكرة وعشية ، أفلا أصدقه فى بيت المقدس . وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس ، فذكرها له رسول اللَّه ، قال : فيومئذ سُمِّى أبو بكر الصديق . قال الحسن : وأنزل اللَّه فى ذلك : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء : ٦٠](٤).

وهكذا ينبغى أن نتعامل مع ما يجىء من قبل النبى ﷺ إن كان قد قال فقد صدق ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم : ٣ ، ٤] . بل لقد كان أبوبكر يتحاشى أن يُدخل جوفه طعامًا فيه شبهة أو حرام ، فعن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر الصديق مملوك يغلُّ عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : ما لك كنت تسألنى كل ليلة ، ولم

(١) «دفاع عن الصحابة» لأبى إسحاق الحوينى (شريط).
(٢) البخارى (متن) (ص ١٠/ح٣).
(٣) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص٧٨).
(٤) البداية والنهاية (ج٣/ ص٩٠).

تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى ، فلما أن كان اليوم مررت بهم ، فإذا عرس لهم فأعطونى . فقال : أفٍّ لك ، كدت تهلكنى . فأدخل يده فى حلقه ، فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء . فدعا بعس من ماء ، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل : يرحمك اللَّه ، كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ؛ سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » . فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة[(١)].

ثم تأتى مرحلة الطوارئ وتعبئة الكتائب فى حادث الهجرة العظيم ، إنه يحتاج لسِرِّيَّة ومهارة وأفراد قليلين يعلمون بالخبر وطعام وشراب ودواب ومال وخبراء طرق ، ومن يُعمِّى الطرق على المشركين ، ومن ينقل الأخبار بدون أن يعلم الأعداء ، كل هذا لتنجح الخطة ، فلقد ساهم أبوبكر وبيته فى هذا بنصيب الأسد كما يقال .

قال ابن إسحاق : وكان أبوبكر حين استأذن رسول اللَّه ﷺ فى الهجرة فقال له : « لَا تَعْجَلْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ صَاحِبًا » . قد طمع بأن يكون رسول اللَّه ﷺ إنما يعنى نفسه ، فابتاع راحلتين حبسهما فى داره يعلفهما إعدادًا لذلك .

وعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : كان لا يخطئ رسول اللَّه ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن اللَّه فيه لرسول اللَّه ﷺ فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه أتانا رسول اللَّه ﷺ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها . قالت : فلما رآه أبوبكر قال : ما جاء رسول اللَّه ﷺ فى هذه الساعة إلا لأمر حدث قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول اللَّه ﷺ وليس عند رسول ﷺ أحد إلا أنا ، وأختى أسماء بنت أبى بكر ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَخْرِجْ عَنِّى مَنْ عِنْدَكَ » . قال : يا

---

(١) أخرج البخارى طرفًا من هذا الحديث .

رسول اللَّه ، إنما هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟ قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِى فِى الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ » . قالت : فقال أبوبكر : الصُّحْبَة يا رسول اللَّه . قال : « الصُّحْبَة » قالت : فواللَّه ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبابكر يومئذٍ يبكى ، ثم قال : يا نبى اللَّه ، إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا . فاستأجرا عبد اللَّه أريقط.

واستأجرا دليلًا يدلهما على الطريق ، وكان أمينًا ، ولكنه كان مشركًا ، قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول اللَّه ﷺ الخروج ، أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، وأمر أبوبكر الصديق ابنه عبد اللَّه أن يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر ابن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار ، فكان عبد اللَّه بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن رسول اللَّه ﷺ ، وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وكانت أسماء بنت أبى بكر رضى اللَّه عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما ، قالت أسماء : ولما خرج رسول اللَّه ﷺ وأبوبكر ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت : قلت : لا أدرى واللَّه أين أبى ؟ قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى ثم انصرفوا[(١)].

قالت أسماء : ولما خرج رسول اللَّه ﷺ ، وخرج أبوبكر معه احتمل أبوبكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم ، فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة - وقد ذهب بصره - فقال : واللَّه إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا . قالت : وأخذت أحجارًا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبًا ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ،

(١) البداية والنهاية (ج٣ ص١٤٥).

قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا ، فقد أحسن . وفى هذا بلاغ لكم ، ولا واللّه ما ترك لنا شيئًا ، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك[١] .

لقد خرج النبى ﷺ من بلد يحبها ، وكان يقسم على حبها ، ولكن وطن الداعية حسب مصلحة دعوته ، إذن فلتهجر الأوطان ، ولينصر الإسلام ، واللّه من وراء القصد .

وها هم يتحركون حتى يصلوا إلى الغار ، ولنعم الفهم فهم أبى بكر ، فعن محمد بن سيرين قال : ذكر رجال عَلَى عهد عمر ، فكأنهم فضلوا عمر على أبى بكر ، فبلغ ذلك عمر ، فقال : واللّه لليلة من أبى بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول اللّه ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبوبكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه ، وساعة خلفه ، حتى فطن رسول اللّه ﷺ فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَالَكَ تَمْشِى سَاعَةً خَلْفِى ، وسَاعَةً بَيْنَ يَدَىَّ ؟» فقال : يا رسول اللّه أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَوْ كَانَ شَىْءٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ بِى دُونَكَ »[٢] . ولسان حال أبى بكر يقول : إذا أنت مت فقد ماتت الدعوة ، أما أنا فشخص واحد .

دَعْنِى أَبُوحُ الآن بالشَّوْقِ والتَّحْنَان
دَعْنِى أَجُودُ الآن بالرُّوحِ والرَّيْحَان
دَعْنِى أَرَى الْإِحْسَانَ دَعْنِى أَرَى الْإِيمَان

وهنا يَبزغ فجر أسماء فتشق نطاقها وتضع فيه الطعام ، فيلقبها النبى ﷺ بذات النطاقين ، فمسئولية إقامة دين اللّه مسئولية الجميع ، فالكل لابد أن يكون له دور من عائشة ابنة الثمانية ، وأم عمارة العجوز الفدائية ، والأمة برجالها وأطفالها كلهم أصحاب رسالة لابد أن يصبروا على تبليغها ، ونحن مستخلفون لإقامة منهج

(١) «البداية والنهاية» (ج٣ص ١٤٤، ١٤٥ ، ١٤٦).
(٢) البيهقى، وهو فى «البداية والنهاية» (ج٣ص ١٤٧).

اللَّه ، فأين حملنا لمنهج الدعوة ، فإن الدعوة ليست وظيفة لأفراد قلائل ، وهنا يُتوجه السؤال :ألسنا من أتباع محمد؟ إذن فلنأخذ العبرة من حياة هذا البطل.

وأبوبكر يوفى بحق الصحبة على أتم الوجوه ، فعن البراء قال : اشترى أبوبكر رضى اللَّه عنه من عازب رحلًا بثلاثة عشر درهمًا ، فقال أبوبكر لعازب : مُر البراء فليحمل إلىّ رحلى . فقال عازب : لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول اللَّه ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم . قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصرى ، هل أرى من ظل فآوى إليه ، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسوَّيته ، ثم فرشت للنبى ﷺ فيه ، ثم قلت له : اضطجع يا نبى اللَّه ، فاضطجع النبى ﷺ ، ثم انطلقت أنظر ما حولى ، هل أرى من الطلب أحدًا ، فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذى أردنا ، فسألته ، فقلت له : لمن أنت يا غلام؟ قال : لرجل من قريش . سمَّاه ، فعرفته ، فقلت : هل فى غنمك من لبن؟ قال : نعم . قلت : فهل أنت حالب لنا؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرت أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فقال : هكذا ضرب إحدى كفيه بالأخرى ، فحلب لى كُثبة من لبن ، وقد جعلت لرسول اللَّه ﷺ إداوة على فمها خرقة صببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبى ﷺ فوافقته قد استيقظ فقلت : اشرب يا رسول اللَّه . فشرب حتى رضيتُ ، ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول اللَّه . قال : «بلى» . فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جُعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول اللَّه؟ فقال : «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا»[1] . وفى رواية : قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقالك «ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللَّه ثالثهما؟!»[2].

سَلْ عُصْبَةَ الشِّرْكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً ... لَوْلَا مُطارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ يُحمِ

(١) البخارى (٣٦٥٢).

(٢) البخارى (٣٦٥٣).

هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَّاءَ أَمْ سَمِعُوا ... هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنَ مِنْ أَتَمِ
فَأَدْبَرُوا وَوُجُوهَ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ ... كَبَاطِلٍ مِنْ جَلالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا ... وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقُمِ
تَوَارَيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ واسْتَتَرَا ... وَمَنْ يضمُ جَنَاحَ اللَّهِ لايضَمِ
وعنايةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضاعفةٍ ... مِنَ الدُّروعِ وعَنْ عالٍ مِنَ الأُطَمِ[١]
فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتِكفًا ... كالدُّرِ فِي الْبَحْرِ أَوْ كالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ

وها هو أبوبكر يظل المركز الأول محجوزًا له باستمرار فى كل مراحل الدعوة وخدمة الدين ، وخدمة النبى محمد ﷺ ، قال أبوبكر : فارتحلنا ، حتى إذا دنا منا - أى : سراقة - فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين - أو قال : ثلاثة - قلت : يا رسول اللَّه هذا الطلب قد لحقنا ، وبَكَيْتُ . قال : « لِمَ تبكى ؟ » قلت : أَمَا واللَّهِ ما على نفسى أبكى ، ولكن أبكى عليك ، فدعا عليه رسول اللَّه ﷺ فقال : « اللَّهُمَّ اكْفِنَاهُ بِمَا شِئْتَ » . فساخت قوائم فرسه إلى بطنها فى أرضٍ صلدٍ ، ووثب عنها ، وقال : يا محمد قد علمت أن هذا عملك ، فادع اللَّه أن ينجينى مما أنا فيه ، فواللَّه لأُعَمِّيَنَّ على من ورائى من الطلب ، وهذه كنانتى فخذ منها سهمًا ؛ فإنك ستمر بإبلى وغنمى بموضع كذا وكذا ، فخذ منها حاجتك . فقال رسول اللَّه ﷺ : « لَا حاجَةَ لِى فِيهَا » . ودعا له رسول اللَّه ﷺ ، فأُطْلِقَ ورجع إلى أصحابه ، ومضى رسول اللَّه ﷺ وأنا معه ، حتى قدمنا المدينة ليلًا وتلقاه الناس ، فخرجوا فى الطرق على الأناجير ، واشتد الخدم والصبيان فى الطريق يقولون : اللَّه أكبر جاء رسول اللَّه ﷺ ، جاء محمد . قال : وتنازع القوم أيهم ينزل عليه . قال : فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَنْزِلُ اللَّيْلَةَ عَلَى بَنِى النَّجَّارِ أَخْوالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِأُكْرِمَهُمْ بِذلِكَ » . فلما أصبح غدا حيث أمر[٢] .

ولقد مرا فى طريقهم على خيمة أم معبد فقيل :

---

(١) الأُطَم : الحصون .

(٢) فى «الصحيحين»، وهو فى «البداية والنهاية» (ج٣ ص ١٥٣) .

جَزَى اللَّهُ رَبُّ الناسِ خَيْرَ جَزائِهِ رَفِيقَيْنِ حَلَّا خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبَرِّ وارْتَحَلَا بِهِ فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ

ويا حسرة المشركين الذين طاردوه ، فلم يظفروا به ، بل لقد خاب سعيهم وطار صوابهم ، وارتفع غيظهم.

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقَدْ سُرَّ مَنْ يَسْرِى إِلَيْهِمْ ويَغْتَدِى
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعُ الْحَقَّ يُرْشَدِ
وَهَلْ يَسْتَوِى ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى وهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ

وكان لحرص أبى بكر على النبى ﷺ إذا سُئل يقول : هاد يهدينى الطريق . وظل الناس لا يعرفون النبى ﷺ. قال ابن اسحاق فى روايته : وأكثرنا لم يكن رأى رسول اللَّه ﷺ قبل ذلك ، وركبه الناس وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول اللَّه ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك[١].

وها هى حياته رضى اللَّه عنه وماله وأولاده وبيته كله فى سبيل خدمة الدين ، ونحن قد عصفت بشبابنا الشهوة وحب المال حتى ما عاد يخرج عشر معشار ماله فى سبيل اللَّه إلا من تغمده اللَّه بفضله ورحمته.

بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوالَ فِى جلِّ مَالنا وَأَنْفُسُنَا عِنْدَ الْوَغَى والتَّآسِيَا
نُعَادِى الَّذِى عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ جميعًا ولو كانَ الْحَبِيبَ الْمُواسِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَىْءَ غَيْرَهُ وَأَنَّ كِتابَ اللَّهِ أصحُّ هَادِيَا
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِى الْفَتَى كَيْفَ سَعْيُهُ إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ واقِيَا

وهنا يرسى النبى ﷺ دعائم الإسلام فى المدينة بالمؤاخاة وبناء المساجد لإصلاح علاقة العبد بربه ، ثم يتنزل شرع اللَّه على أمته ﷺ فى شتى مناحى الحياة

(١) «البداية والنهاية» (ج٣ ص١٥٩).

من شريعة وعبودية وتربية وعقيدة وأخلاق ، وفى كل ذلك يبزر أبوبكر فيظل محافظًا على مركزه الأول كذى قبل ، فها هو يسأل أربعة أسئلة بعد الفجر : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِمًا ؟ » قال أبوبكر : أنا . ثم سؤال ثانى : « مَنْ عَادَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ؟ » قال أبوبكر : أنا . ثم آخر : « مَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟ » . قال أبوبكر : أنا . ثم سؤال آخر : « مَنْ تَبِعَ الْيَوْمَ جِنَازَةً ؟ » قال أبوبكر : أنا . قال : « مَا اجْتَمَعْنَ فِى امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

ولما عد النبى ﷺ أبواب الجنة الثمانية فسأله صاحب معالى الأمور ومجمع الفضائل ، هل يوجد أحد يدخل من هذه الثمانية ؟ قال : "أرجو أن تكون منهم يا أبا بكر" ، ومن ثَمَّ كان لايسمح أن تمس مكانة أبى بكر رضى اللَّه عنه ، فعن أبى الدرداء قال : كنت جالسًا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبوبكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبى ﷺ : « أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ » . أى : خاصم ولابس الخصومة ، فسلَّم ، وقال : يا رسول اللَّه ، إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت إليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لى ، فأبى علىَّ ، فأقبلتُ إليكَ . فقال : « يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » . ثلاثًا ، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فسأل أثَمَّ أبوبكر ؟ فقالوا : لا . فأتى إلى النبى ﷺ فسلم عليه ، فجعل وجه النبى ﷺ يتمعر حتى أشفق أبوبكر ، فجثا على ركبتيه ، فقال : يا رسول اللَّه : واللَّه أنا كنت أظلم مرتين ، فقال النبى ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِى إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ . وقال أبوبكر : صَدَقَ ، وواسانِى بِنَفْسِهِ ومالِه فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِى صَاحِبِى ؟ » . مرتين فما أُوذِىَ بَعْدَها[١] .

فسبحان اللَّه ماذا يقول المغتابون الطعانون لأدنى شبهة ، وبمجرد الهوى وليس نابعًا عن إخلاص ، بل لمجرد أنك لا توافقه على رأيه ،يزداد طعنه فيك ولمزك وغيبته إلا حسدًا وبغيًا وعدوانًا لا اتباعًا لهدى هؤلاء الصحب الكرام ، فما أنزههم عن مثل هذا الخلق المشين ، بل كلمة واحدة بكى من أجلها الصديق وندم عمر أن

(١) البخارى (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) .

لم يسامحه ، فتبًّا لأخلاق السوء وسفاسهها ، وحيَّهلًا على أخلاق الفضلاء ، وتعسًا لأخلاق الجهلاء .

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
وَنَشْرَبُ إنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَرًا وَطِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامُ لَنَا رَضِيعًا تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

فلننظر إلى الحق ولنتبعه بغض النظر عن الأشخاص ، فالحق أولى بالاتباع وإن خالف كل الأشخاص ، وهذه شيمة الصلحاء ، وليبكى من بكى على خلاف ذلك .

فرفقًا بأعراض الناس ومكانتهم ، وحرصًا على رفعة شأن الإسلام ، فإذا وجدت نقصًا فسد الخلل ، وكفى المرء نبلًا أن تعد معايبه ، فهذه هى أخلاقهم ، فإن كنت مقتديًا فسارع قبل أن تطير الطيور بأرزاقها ، وتموت وأنت على السوء .

وَبَعْضُ خَلَائِقِ الْأَقْوَامِ دَاءٌ كَداءِ الشَّيْخِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ

وقولُ الآخرِ :

لَهُ خَلْق ولَيْسَ لَدَيْهِ خُلُقٌ كَبَارِقَةٍ تَرُوقُ ولا تُرِيقُ

نريد أن نطبق ما نسمعه وينزل الكلام على أرض الواقع ، فكفى كلام بلا فعال كما قيل :

جُيوشٌ ما لها فِى الْحَرْبِ نَفْعٌ حَكَتْ صُوَرًا تُصوَّرُ فِى كِتابِ
رَأَيْتُ قِتَالَهُمْ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ كَمِثْلِ الضَّرْبِ فِى كُتُبِ الْحِسَابِ

بل نريد كما قيل :

جناكُنَّ كَالْكَرْمِ شَتَّى الْمَذا قِ وكَالشَّهْدِ فِى كُلِّ لَوْنٍ يُحَبُّ

وتمضى الأيام تباعًا ، وهذا الجبل الأشم يترك لنا ميراثًا يا ليتنا نجنى ثماره ونتذوقها فُنفعل هذا مع قلوبنا فتحركنا للعمل وهو المراد .

وما زال أبوبكر يبادل النبى ﷺ محبة وإخلاصًا لدين اللّه حتى فى اللحظات الشديدة يُجسد هذا الحب ومبادلة النبى ﷺ نفس هذا الشعور ، ففى غزوة بدر

بعدما جيَّش الكفار جنودهم لقتال أهل الحق ، ورسول اللّه ﷺ يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ويقول فيما يدع به : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَا تُعْبَدْ بَعْدَهَا فِى الْأَرْضِ » . وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِى مَا وَعَدْتَنِى ، اللَّهُمَّ نَصْرَكَ » . ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبوبكر - رضى اللّه عنه - يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ، ويقول مشفقًا عليه من كثرة الابتهال : يا رسول اللّه بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك[١].

وفى رواية الإمام أحمد ، فأنزل اللّه : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال : ٩].

والصَّبْرُ فِى اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ
وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى والْبِرِّ وَالرَّشَادِ

وإن أبا بكر ليقدم الرفق على الشدة ، وقد كان ذلك جليًّا فى موقفه مع أسرى بدر ، فعن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال : نظر رسول اللّه ﷺ إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة ونيف ،ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة. . . فقتل منهم سبعون رجلًا ، وأُسِرَ منهم سبعون رجلًا ، واستشار رسول اللّه ﷺ أبا بكر وعمر ، فقال أبوبكر : يا رسول اللّه ، هؤلاء بنو العم ، والعشيرة ، والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى اللّه أن يهديهم ، فيكونوا لنا عضدًا . فقال رسول اللّه ﷺ : « مَا تَرَى يَا بْنَ الْخَطَّابِ ؟ » قال : قلتُ : واللّه ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه ، حتى يعلم اللّه أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم فَهَوى رسولُ اللّهِ ﷺ ما قال أبوبكر ، ولم يهو

(١) حسن: حسنه الألبانى فى «سنن الترمذى» بتحقيقه (٣٠٨١).

ما قلتُ ، وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر : فغدوتُ إلى النبيِّ ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلتُ : يا رسول اللّه ، أَخْبِرْنِى ماذا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . فقال رسول لله ﷺ : « أَبْكِى لِلَّذِى عَرَضَ عَلَىَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، قَدْ عُرِضَ عَلَىَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ - وأنزل اللّه تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال : ٦٧ ، ٦٨] من الفداء ثم أحل لهم الغنائم[١] .

لقِيناهُمْ كالْأُسْدِ تَخْطُرُ بِالْقَنَا ... نُقَاتِلُ فِى الرَّحمنِ مَنْ كانَ عاصِيَا
فَمَا بَرِحَتْ أَقْدامُنَا مِنْ مَقَامِنَا ... ثَلَاثَتُنَا حتَّى أُزيرُوا الْمَنائِيَا
وَعَجِبْتُ لِأَمْرِ اللّهِ وَاللّهُ قادِرٌ ... عَلَى مَا أَرادَ لَيْسَ لِلَّهِ ضَاهِيَا

وعلى خط الاتباع الذى يسير عليه أبو بكر يظل على هذا الوضع ، ففى وقائع صلح الحديبية عندما جاء سهيل بن عمرو لمفاوضة المسلمين ، ولما انتهى سهيل إلى رسول اللّه ﷺ فتكلم فأطال الكلام وتراجعًا ثم جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر ، فأَتَى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول اللّه ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدَّنِيَّة فى ديننا ؟ قال أبوبكر : يا عمر الزم غَرْزَه ، فإنى أشهد أنه رسول اللّه . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول اللّه ، ثم أتى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه ألست برسول اللّه ؟ قال : « بلى » . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : « بلى » . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فَعَلَامَ نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : « أَنَا عَبْدُ اللّهِ ورَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعُنِى » . وكان عمر رضى اللّه عنه يقول : مازلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذى صنعت يومئذٍ ، مخافة كلامى الذى تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا[٢] .

---

(١) مسلم (١٧٦٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٢٣) .

فمَن يَتْبَعه يُهدَ لكُلِّ رُشدٍ   ومَنْ يكفُرْ به يُخْزَ الكفورُ

وفى بعض السرايا كان يرسل النبى ﷺ أبا بكر مثل إرساله إلى بنى فَزارة ، فعن إياس ابن مسلم قال : خرجنا مع أبى بكر بن أبى قحافة ، وأَمَّرَهُ رسولُ اللَّه ﷺ فغزونا بنى فزارة ، فلما دنونا من الماء أَمَرَنا أبوبكر فعرسنا ، فلما صلينا الصبح أمرنا أبوبكر فشننا الغارة ، فقتلنا على الماء من مَرَّ قِبَلَنا ، قال سلمة : ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل ، وأنا أعدو فى آثارهم ، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل ، فرميت بسهم ، فوقع بينهم وبين الجبل ، قال : فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها قشع - بساط - من أدم - جلد - ومعها ابنة من أحسن العرب ، قال : فنفلنى أبوبكر بنتها ، قال : فما كشفتُ لها ثوبًا حتى قدمت المدينة ، ثم بت فلم أَكْشِفْ لها ثوبًا . قال : فلقينى رسول اللَّه ﷺ فى السوق فقال لى : « يَا سَلَمَةَ هَبْ لِى الْمَرْأَةَ » . قال : فقلت : واللَّه يا رسولَ اللَّهِ ، لقد أعجبتنى وما كشفتُ لها ثوبًا - ثلاث مرات - هى لك يا رسول اللَّه ، فبعث بها رسول اللَّه ﷺ إلى أهل مكة ، وفى أيديهم أُسارى من المسلمين ، ففداهم رسول اللَّه ﷺ بتلك المرأة[١] .

وهكذا رَبَّى النبى ﷺ قاعدة صَلبةً قويَّةً تصلح لرفع الراية بعده ، وتمضى الأيام ويجىء مرض النبى ﷺ ، وقد كان النبى ﷺ يَكِلُ أمورًا كثيرة لأبى بكر ، ويفضله على غيره ، ويبجله ويحترمه ، فقد خطب رسول اللَّه ﷺ بالناس وقال : « إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذٰلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ » . قال : فبكى أبوبكر فعجبنا لبكائه ، أن يُخْبِرَ رسولُ اللَّه ﷺ عن عبد خُير فكان رسول اللَّه ﷺ هو المخير ، وكان أبوبكر أعلمنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِى صُحْبَتِهِ ومَالِهِ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّى لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلٰكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ ، لَا يَبْقَيَنَّ فِى الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِى بَكْرٍ »[٢] .

---

(١) البيهقى وأحمد ومسلم (١٧٥٥).

(٢) البخارى (٣٦٥٤).

وأمَّر النبى ﷺ عام الوفود لكثرتهم أبا بكر على الحجاج ، وفى رواية عن محمد ابن جبير ، عن أبيه قال : أتت امرأة النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيتَ إن جئتُ ولم أجدْك ؟ - كأنها تقول الموت - قال ﷺ : « إنْ لَمْ تَجِدِينِى فَأْتِى أَبَا بَكْرٍ »[1].

وفى يوم الاثنين صعدت روحٌ طاهرة إلى السماء ، وكانت روح النبى ﷺ ، ولكنه خلف ورائه رجالًا وشريعة وهداية وإيمانًا ، ولكن حدث اضطراب بين أصحاب النبى ﷺ ، فلم يتحمل بعضهم الصدمة ، وهنا ظهر ذلك المنبع الهادى الطباع فى دور القائد الثابت رابط الجأش ، فعن عائشة رضى اللَّه عنها زوج النبى ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنح - قال إسماعيل : يعنى بالعالية - فقام عمر رضى اللَّه عنه يقول : واللَّه ما مات رسول اللَّه - قالت : وقال عمر : واللَّه ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك - وليبعثه فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم . فجاء أبوبكر فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبله ، قال : بأبى أنت وأمى طبت حيًّا وميتًا ، والذى نفسى بيده لا يذيقك اللَّه الموتتين أبدًا . ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، فقال : ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حى لا يموت ، وقال : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر : ٣٠] . وقال : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران : ١٤٤] . قال : فنشج الناس يبكون . قال : واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، فقالوا : منا أمير ، ومنكم أمير . فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول : واللَّهِ ما أردتُ بذلك إلا أنِّى قد هيَّأتُ كلامًا قد أعجبنى خشيتُ أن لا يبلغه أبوبكر . ثم تكلم أبوبكر فتكلم أبلغ الناس ، فقال فى كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ،

(١) البخارى (٣٦٥٩) ، ومسلم، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى (٦١).

فقال حباب بن المنذر : واللَّه لا نفعل ، منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكرٍ : لا ولكنَّا الأمراءُ وأنتم الوزراءُ ، هم أوسط العربِ درًا وأعربهم أحسابًا ، فبايعوا عمرَ بنَ الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح . فقال عمر : بل نبايعك أنتَ ، فأنت سيِّدُنا وخيرُنا ، وأحبُّنا إلى رسول اللَّه ﷺ . فأخذ عمرُ بيده فبايعه ، وبايعه الناس ، فقال قائل : قتلتم سعد بن عبادة . فقال عمر : قتله اللَّه[١] .

وعندما وُسد الأمر لأبى بكر رضى اللَّه عنه أعلن على المنبر قاموسًا للحكام يسيرون عليه وهو أولهم كما عود أمته ، فعن هشام بن عروة عن أبيه ، قال : لما ولى أبوبكر خطب الناس ، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكن قد نزل القرآن ، وسن النبى ﷺ فعلمنا أن أكيس الكَيْس التقوى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن زغت فقومونى.

ولكن بمجرد وفاة النبى ﷺ نجم النفاق وارتد كثير من العرب ، حتى ما عادت تُقام الصلاة إلا فى مكة والمدينة ، وقرية من قرى هجر ، وكان النبى ﷺ قبل وفاته قد جهز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد رضى اللَّه عنهما ، لتأديب الخارجين والروم ، وكان على أبى بكر رضى اللَّه عنه أن يثبت دعائم الدولة الإسلامية ويوطد أركانها ، ويقوى شوكتها على الذين بدءوا يستهزئون بها ، ومانعى الزكاة الذين يقولون : كنا نؤديها لرسول اللَّه ﷺ ، فلما مات فلا زكاة.

إذن فليبدأ بما كان يريد النبى ﷺ فعله ، فليرسل جيش أسامة ، ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات ، وقد طلب بعض كبار الصحابة على لسان عمر أن يولى إمرة الجيش من هو أكبر من أسامة ، فأمسك أبوبكر لحية عمر وقال : كيف تأمرنى أن أعزله وقد استعمله النبى ﷺ[٢] ؟ ثم خرج رضى اللَّه عنه وشيع الجيش

---

(١) البخارى (٣٦٦٧)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى (٧٠) وما بعدها، والطبرى فى "تاريخه".

(٢) الطبرى (٣/ ٢٢٥)، و«البداية» (٦/ ٣٠٥).

بنفسه ماشيًا وأسامة راكبًا ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول اللّه ﷺ لتركبن أو لأنزلن ، فقال : واللّه لا نزلت ولا ركبتُ ، وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل اللّه ، ثم وصاه فقال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمزقوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ولا تعزقوا نخلًا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وإذا لقيتم قومًا فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاضربوا بالسيف ما حصوا عنه ، فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم اللّه » ، يا أسامة اصنع ما أمرك نبى الإسلام ببلاد قضاعة ، ثم أنت قافل ولا تقصر من أمر رسول اللّه ﷺ ، ثم ودعه من الجرف ، والجرف موضع قرب المدينة[1] . ورغب أسامة من عمر بن الخطاب التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبى بكر شفقة من أن يدهمه أمْرٌ ، فأذن أبوبكر لعمر فى ذلك وسار أسامة . . ورجع إلى المدينة ظافرًا بعد أن غاب عنها أربعين يومًا ، وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعًا للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا على فعله ، وكان أبوبكر موفقًا فى ذلك بفضل اللّه وإقامته على المنهج المستقيم[2] .

فقُلتُ خلُّوا سَبِيلِى لَا أَبا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعُولُ

وانظر لهذا المزيج العذب الذى يختلط فى هذه الشخصية الفذة ، فهو قوى شديد الشكيمة ، فهو يقول : والذى لا إله غيره ، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول اللّه ﷺ ما رددت جيشًا وجهه رسول اللّه ﷺ ، ولا حللت لواءً عقده رسول اللّه ﷺ - ثم انظر لهذه الصواريخ والقواذف - أيهزم الدين وأنا حى ؟! لا واللّه - واللّه لو خذلتنى شمالى لجاهدتها بيمينى . ثم قال : لا يبيتن أحد إلا فى المسجد ؟! استعدادًا لجو الردة العام - إنها تعبئة بالطاعة ليست تعبئة بحشد

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ١٤).

(٢) «الخلفاء الراشدين» د/ محمد السيد أبو يابس.

المغنيين والساقطين ليترنموا بالفجور والفسق - وفى نفس الوقت قمة التواضع. قال علماء السير : وكان أبوبكر يحلب للحى أغنامهم ، فلما بُويع قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا منائح - غنم ذا لبن - دارنا فسمعها . فقال : بلى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه . فكان يحلب لهم[١] . اللّه أكبر ما هذا التواضع.

تواضَعْ تكُنْ كالنَّجْمِ لَاحَ لِنَاظِرٍ　　عَلَى صَفَحاتِ الْمَاءِ وَهْوَ قَرِيبُ

وتاللّه إن حياته عبرة كلها وعظة لكل متبلد الحس فى جوانب الطاعة الذى لا يريد أن يتحرك ، وحوله ما حوله ، و تسمع منه إلا الكلام ، وهو يرغى ويزبد ويدعى وصلًا.

وَكُـلٌّ يَـدَّعِـى وَصْـلًا بِـلَـيْـلَـى　　وَلَـيْـلَـى لَا تُـقِـرُّ لَـهُـمْ بِـذَاكَ

وكان من رأى أبى بكر رضى اللّه عنه قتال مانعى الزكاة ، كما يقاتل المرتدين؛ لأن تعطيل الزكاة طعن على الصلاة ، بل على جميع منازل الدين وظهر تبجح المرتدين.

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا　　فَوَاعَجَبًا مَا بَالُ مُلْكِ أَبِى بَكْرِ

على تفصيل يذكر فى مظنته من أحكام هؤلاء الذين منعوا الزكاة. فقال عمر : يا أبا بكر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول اللّه ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» . قال أبوبكر : واللّه لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، واللّه لو منعونى عقالًا كانوا يؤدونها لرسول اللّه ﷺ لقتلتهم على منعها . قال عمر : فواللّه ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح اللّه صدر أبى بكر للقتال فعلمت أنه الحق[٢].

---

(١) «صفة الصفوة» (ج١ ص٩٨).

(٢) كتب الصحاح؛ كالبخارى ومسلم وغيرهما ، و«تاريخ الخلفاء» (٧٤)، "وتاريخ الإسلام" للذهبى (٣/ ٢٠).

وأدب على تخوم وحدود المدينة الأعراب الذين طمعوا فى المدينة ، فرد عاديتهم وسير الجيوش بقواده الأحرار ، وهم :

١- وقد عقد أبوبكر ألوية منها لواء لسيف اللّه خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة ابن خويلد الأسدى ، فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة وكلاهما ادعى النبوة.

٢- عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة الكذاب وكان قد ادعى النبوة.

٣- شرحبيل بن حسنة ووجهه فى إثر عكرمة.

٤- المهاجر بن أبى أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى ومعاونة الأبناء - قوم من الفرس سكنوا اليمن - ثم يمضى إلى كندة.

٥- عرفجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل واحد أمير على صاحبه فى عمله.

٦- حذيفة بن محصن القلنانى وجهه إلى أهل دبا.

٧- سويد بن مقرن ووجهه إلى تهامة اليمن.

٨- العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين.

٩- طُريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.

١٠- عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

١١- خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام.

وها هو يوصى قواده بعرض الإسلام على هؤلاء من جديد ، وإلا قوتلوا من جديد حتى يعودوا لما كانوا من الإسلام وتأدية الزكاة ، ويستوصى المسلمين من حسن الصحبة ولين القول[١].

وهكذا يكون دعاة الإسلام وقواده ، ثم هو يزجر المرتدين بخطاب شديد اللّهجة يذكرهم فيه أن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد

(١) باختصار وتصرف من «البداية والنهاية» (ج٣/ ٢٥٩)، والطبرى (٣/ ٣٥٠ وما بعدها).

الله فإن الله حى لا يموت ، وبيَّن لهم أن الهداية من الله ، وهؤلاء قواده قد خرجوا إليهم ، فإن أجابوهم فنعم ، وإلا القتال ، وسير هذه الكتب قبل مسير الأمراء ، ثم خرجت الأمراء ومعهم العهود وكل إلى جهته والله ناصره[١].

ولقد كلل الله جهود قواده وجنوده بالظفر على هؤلاء فى معركة تلو معركة ذهبت على أثرها فكرة الردة من أذهان هؤلاء ، وعادت جزيرة العرب هادئة مرة أخرى ، وأصلح الله بالقرآن كما أصلح بالسنان ضلال هؤلاء ، ورُفع من رُفع شهيدًا ، وذهب مع كفره وضلاله وردته من ذهب ، وكان من أشهر هذه المعارك موقعه اليمامة مع جنود مسيلمة الكذاب - وردت فى ترجمة خالد سيف الإسلام - .

ثم العراق وتطهيرها من شيطنة فارس وأعوانهم ، وكان للقائد المظفر خالد بن الوليد الدور الكبير فى تأديب هؤلاء ، ثم أمره أبوبكر رضى الله عنهما بالتوجه للشام لحرب الروم الذى وقعت بينه وبين جنود الروم مقتلة عظيمة ورد ذكرها فى ترجمة خالد ذلكم السيف القاطع على أعداء الله. ثم من أعمال أبى بكر العظيمة جمع القرآن ، فقد جاء عمر بن الخطاب إلى أبى بكر فقال : إن القتل قد استحر - كثر - بالناس يوم اليمامة ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن . قال أبوبكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئًا لم يعمله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت رأى عمر .

وانتقى أبوبكر لهذه المهمة زيد بن ثابت فقال له : إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . ولقد عبر زيد عن هذه المهمة فقال : فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . وبدأ يجمع من هنا وهناك من الحفظة ومما كُتب ، وكان ما جُمع عند أبى بكر ثم عمر ثم حفصة بنت عمر رضى الله عنهم جميعًا .

ولقد قال علىٌّ فى حق أبى بكر : أعظم الناس أجرًا فى المصاحف أبو بكر ،

(١) الطبرى (٣/ ٢٥٠ وما بعدها)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٦/ ٣٥٦) باختصار.

إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين[١].

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

ولقد نظر أبوبكر فيمن حوله وهو على مشارف نهاية هذه الخدمة الجليلة أن يولى رجلًا يستطيع أن يمسك بزمام الأمور وسط هذه المسئولية التى تئن تحتها الجبال، فمن يصلح لهذه المسئولية إنه عمر بن الخطاب، ومع ذلك فقد عمل على استشارة المسلمين قبل أن يبت فى الأمر، فقد استشار عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار فى شأن اختيار عمر بن الخطاب؛ ليكون خليفة للمسلمين، فكلهم أثنى عليه، وقال أسيد: اللَّهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، الذى يُسر خيرٌ من الذى يُعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد فقوى عليه منه[٢].

وتأتى ظلال اللحظات الأخيرة المختلطة بالدموع إن أبا بكر لما ثقل أشرف على الناس من كُوة فقال: أيها الناس إنى قد عهدت عهدًا أفترضون به؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول اللَّه، فقام على، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر. قال: فإنه عمر[٣].

ثم نادى عمر فقال له: إنى استخلفتك على أصحاب رسول اللَّه ﷺ، يا عمر إن لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقًّا بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غدًا إلا حق أن يكون ثقيلًا، أم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غدًا إلا باطل أن يكون خفيفًا، أم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء؛ ليكون

---

(١) السيوطى فى «تاريخ الخلفاء» (٧٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٤٢).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٤٢ ص١٤١)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى (٨٣، ٨٤).

المؤمن راغبًا راهبًا ، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على اللّه ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقى فيه بيديه ، ألم تر يا عمر إنما ذكر اللّه أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو أن لا أكون منهم ، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم؛ لأنه تجاوز لهم عما كان من سىء أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت : أين عملى من أعمالهم ، فإن حفظت وصيتى لا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه[١] .

وكان آخر كلامه : توفنى مسلمًا . وألحقنى بالصالحين ، عن خلافة عامين وثلاثة شهور وعشرة أيام ، ثم لحق بربه سبحانه وتعالى ، فهلم أخى استلهم العبرة والعظة ، وتشبهوا بهؤلاء الصحب ، فإن التشبه بهم فلاح ، وأى فلاح .

واعتـادَنِى حزنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِى ... بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسِّماكُ مُوَكَّلُ[٢]
وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى ... مِمَّا تَأَدَّبَنِى شِهَابٌ مُدْخَلُ[٣]

ولا تكن ممن :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَـا لِـجُـرْحٍ بِـمَـيِّـتٍ إِيـلَامُ

واحفظ العهد :

إِنَّـمـا يَـحْـفَـظُ الـتُّـقَـى الْأَبْـرَارَ ... وَإِلَـى الـلَّـهِ يَـسْـتَـقِـرُّ الْـقَـرَارُ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُونَ وَعِنْدَ اللَّهِ ... وِرْدُ الْأُمُـورِ وَالْإِصْـدارُ
كُلُّ شَىْءٍ أَحْصَى كِتابًا وَعِلْمًا ... وَلَـدَيْـهِ تَـجَـلَّـتِ الْأَسْـرارُ

---

(١) الطبرى (٣/ ٤١٩)، و«تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ٥٧)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى (٨١).

(٢) بنات نعش: يقصد الكواكب، وسماكان: نجمان ينيران، والمعنى: من طول السهر بات يرعى النجوم.

(٣) مدخل: نافذ إلى الداخل.

[٢] عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه

قال ابن مسعود رضى اللَّه عنه : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وليست العبرة بمن سبق دائمًا ، ولكن العبرة بمن صدق ، لقد كان لإسلام عمر رضى اللَّه عنه نقطة تحول رهيبة فى حياة المسلمين القلائل الضعفاء ، فلقد أسلم قبله عدة من أصحاب النبى ﷺ؛ قرابة الأربعين أو ما يزيد بقليل ،ولكنه عندما أسلم عمر ظهر التغير ، فلقد عُبر عن إسلامه : لقد كان إسلامه فتحًا ، وهجرته نصرًا .

فكيف أسلم هذا العملاق ؟ رغم أنه قبل ذلك ، وعندما أراد بعض الصحابة الهجرة ، ومر على زوجته ، فكأنه حن لموقفهم ، فقالت لزوجها : كاد عمر أن يسلم. فقال الرجل : لو أسلم حمار الخطاب ما أسلم عمر.

وهذا يسلط الضوء على شدة إيذاء عمر لأصحاب النبى ﷺ قبل إسلامه ، لدرجة استبعاد هذا الصحابى لإسلام عمر ، ولكن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وللَّه در ابن الجوزى رحمه اللَّه حينما قال : من ظن أن عمر يسلم ؟ ومن ظن أن برصيصا يشرك ؟. فلا تستبعد هداية أحد طالما روحه فى جسده.

ولكن كيف أسلم صاحب هذا القلب العنيد ؟ فعن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه عنهما قال : ما سمعت عمر يقول لشىء قط : إنى لأظنه كذا . وإلا كان كما يظن ، بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال عمر : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم ، علىَّ بالرجل . فدُعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى . قال : كنت كاهنهم . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت :

أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا
وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا

وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا[١] ؟

قال عمر : بينما أنا عند آلهتهم إذا جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخًا أشد صوتًا منه يقول : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا اللّٰه. فوثب القوم ، قلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا اللّٰه. فقمت فما نشبنا أن قيل : هذا نبى[٢].

وهذا يبين أن هذه رؤيا رآها كانت سببًا فى إسلامه مع الانضمام لرواية : « اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ ؛ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، أَوْ بِأَبِى جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ » . فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه[٣].

وبعد أن أسلم كما ورد عن عبد اللّٰه بن عمر ، عن أبيه قال : "بينما هو فى الدار خائف إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو ، عليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت. قال : لا سبيل إليك. بعد أن قالها أمنت ، فخرج العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال : أين تريدون ؟ فقال زيد : هذا ابن الخطاب الذى صبأ .

قال : لا سبيل إليه . فكرَّ الناس. وفى رواية : قال : أنا له جار. فرأيت الناس تصدعوا عنه[٤].

(١) الإبلاس: اليأس، والإنكاس: الانقلاب، والقلاص: ناقة، والأحلاس: ما يوضع فوق ظهر الإبل.

(٢) البخارى (٣٨٦٦).

(٣) الترمذى (٣٦٨١)، وقال: حسن صحيح غريب. قال الحافظ: صححه ابن حبان، وفى إسناده خارجة: صدوق فيه مقال، لكن له شاهد من حديث ابن عباس، أخرجه الترمذى أيضًا، ومن حديث أنس، وله شاهد مرسل أخرجه ابن سعد من طريق سعيد بن المسيب، والإسناد صحيح إليه. «فتح البارى» (٧/ ٥٩).

(٤) البخارى (٣٨٦٤، ٣٨٦٥).

إنه صار الآن فى عداد المسلمين ، ولكن كنا نتمنى أن يلحق بالركب مبكرًا ، فقد سبقه بلال وغيره ، ولكنه رضى اللَّه عنه بصدقه ، وقوته فى العلو للحق ، وصدعه به غير هياب من شخص أحد رفعه اللَّه ، فصار الرجل الثانى بعد أبى بكر الصديق رضى اللَّه عنهما .

إنه ليحمل أعظم المؤهلات التى رفعته لهذه المنزلة الخفاقة السامية ، فلقد شهد له نبيه ﷺ أعظم الشهادة فى أكثر من حديث ، فعن جابر رضى اللَّه عنه قال النبى ﷺ. « رَأَيْتُنِى دَخَلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِى طلحةَ ، وسمعتُ خشفةً ، فقلت : مَنْ هذا ؟ فقالَ : هذا بلال .

ورأيت قصرًا بفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا ؟ قال : لعمر . فأردت أن أدخله فأنظر إليه ، فذكرت غيرتك - مخاطبًا عمر- " . فقال عمر : بأبى وأمى يا رسول اللَّه ، أعليك أغار ؟! وفى رواية : "فوليت مدبرًا " ، فبكى عمر ، وقال : أعليك أغار يا رسول اللَّه ؟![١] .

وفى رواية : قال النبى ﷺ : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ - يَعْنِى اللبنَ - حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّىِّ يَجْرِى فِى ظُفْرِى - أَوْ فِى أَظْفَارِى - ، ثُمَّ نَاوَلْتُ عُمَرَ » . فقالوا : فما أولته ؟ قال : « الْعِلْم »[٢] .

فها هو النبى ﷺ يزكيه من ناحية علمه وامتلائه من هذا الخير العظيم .

ثم هذه العظيمة - إن لم تكن أعظمهم - : فعن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه ، عن أبيه قال : استأذن عمر بن الخطاب على رسول اللَّه ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر ابن الخطاب قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول اللَّه ﷺ ، فدخل عمر ورسول اللَّه ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك اللَّه سِنَّكَ يا رسول اللَّهِ ، فقال النبىُّ ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ هَؤلَاءِ اللَّاتِى كُنَّ عِنْدِى ، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ » .

---

(١) البخارى (٣٦٧٩، ٣٦٨٠).

(٢) البخارى (٣٦٨١).

فقال عمر : فأنتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . ثم قال عمر : يا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ ! أَتَهَبْنَنِى وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقُلْنَ : نَعَمْ ، أَنْتَ أَفَظُّ وأَغْلَظُ مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ. فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِيهًا يَا بنَ الْخَطَّابِ ، والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ »[1].

فَلَا تَقِيمُوا عَلَى ذُلِّ الْحَيَاةِ وَخِزْيِ فِى الْمَمَاتِ وَعَيْبٌ غَيْرُ مَأْسُوفِ

وقيل :

وَلَا خَيْرَ فِى حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا
وَلَا خَيْرَ فِى جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُورِدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

وعن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال : صعد النبى ﷺ إلى أُحُدٍ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ، فضربه برجله وقال : « اثْبُتْ أُحُدَ ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِىٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ »[2].

وقال ابن عمر : "ما رأيت أحدًا قط بعد رسول اللَّه ﷺ من حين قُبض كان أجد وأجود حتى انتهى - أى : الأمر - من عمر بن الخطاب"[3].

وحب هؤلاء الصحب الكرام من الإيمان ، بل حبهم ومعرفة منزلتهم عقيدة يجب التمسك بها ، قال أنس : " إن رجلًا سأل النبى ﷺ عن الساعة ، فقال : متى الساعة ؟ قال : « وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » . قال : لا شىء إلا أنى أحب اللَّه ورسوله ﷺ . فقال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قال أنس : فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى ﷺ : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قال أنس : فأنا أحب النبى ﷺ ، وأبا بكر ، وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم"[4].

وإن الدِّينَ ليبلغ من عمر - رضى اللَّه عنه - مبلغه بشهادة المصطفى ﷺ نفسه ،

---

(١) البخارى (٣٦٨٣).

(٢) البخارى (٣٦٨٦).

(٣) البخارى (٣٦٨٧).

(٤) البخارى (٣٦٨٧).

فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال : قال النبى ﷺ :« بينا أنا نائم رأيت الناس عُرضوا علىَّ وعليهم قُمُصٌ ، فمنها ما يبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعُرض علىَّ عمر وعليه قميص اجتره » . قالوا : فما أولته يا رسول اللَّه ؟ قال : « الدِّينُ » .

أَعْطُوا نَبِيَّ الْهُدَى والْبِرِّ طَاعَتَهُمْ فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجَدُّوا السَّيْرَ جَهْدَهُمُ أَوْ قَالَ عُودُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا
مَا زَالَ سَيْرُهُمُ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهُمْ أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ الْبِيَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلُّهُمُ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جَدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا[1]

إنه رجل يجرى الحق على لسانه وقلبه ، لدرجة أن نزول بعض القرآن كان موافقًا له ، فكما مر مع موقف الأسرى فى بدر فى ترجمة أبى بكر الصديق.

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه : "وافقت ربى عز وجل فى ثلاث : قلت : يا رسول اللَّه ! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى. فنزلت : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥]. وقلت : يا رسول اللَّه! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن. فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول اللَّه ﷺ نساؤه فى الغيرة ، فقلت : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت كذلك[2].

فلقد اختلط القرآن بشحومهم ولحومهم ، وألسنتهم وقلوبهم ، فإذا نطقوا فبالقرآن يتكلمون ، وإذا تحركوا فعن أوامر القرآن يتحركون ،وإذا سكتوا فعن نهى القرآن يصمتون ، وإذا جدت لهم أمور ففى القرآن يبحثون ، فتعسًا لأقوام ليس لهم فى القرآن والسنة مرجعًا ودينًا .

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ بِالتَّمْوِيهِ

---

(١) شمعوا: لعبوا وفرحوا.

(٢) البخارى.

ومرت أحداث مكة ، وجاءت الهجرة ،وكعادة عمر رضى الله عنه يرغب فى إظهار الحق ، فحمل سلاحه جهارًا نهارًا ، ونادى فى أهل مكة : من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده فليتبعنى. فلم يتبعه أحد[١] ، نزل أرض المدينة.

ثم يأتى رأيه فى بدر فى الأسرى يجسد قوة شخصيته فى إظهار الحق ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، وليحزن من يحزن ، ويموت من يموت ، المهم أن تعلو راية الحق بالحق ، حتى فى لحظات الشدة يأبى عمر إلا الصدع بالحق وليكن ما يكون ، فلما شُج النبى ﷺ ، وعمد النبى ﷺ وأبوبكر وعمر إلى جبل أحد ، إذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل : اعل هبل اعل هبل - مرتين يعنى آلهته - ، أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر بن الخطاب : ألا أُجيبه ؟ قال ﷺ : «بلى». قال : فلما قال : اعل هبل ، قال : اللَّهُ أعلى وأجل. قال أبو سفيان : يا بن الخطاب ! قد أنعمت عينها ، فعاد عنها - فقال : أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ﷺ ، وهذا أبو بكر ، وهأنذا عمر. فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، الأيام دول ، وإن الحرب سجال. قال : فقال عمر : لا سواء ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار . قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا. ثم قال أبو سفيان : أما إنكم سوف تجدون فى قتلاكم مُثلة ، ولم يكن ذلك عن رأى سراتنا. قال : ثم أدركته حمية الجاهلية ، فقال : أما إنه إن كان ذلك لم نكرهه[٢].

ولم يهدأ لجند الله بال   على الأغلال والموت الزؤام
هم الآمال للدنيا جميعًا   ونور الله أهل لاحترام
فيا من عشت للقرآن فانهض   نفير الله يدعو للأمام

وعند وفاة النبى ﷺ تتزلزل أركان عمر؛ إذ أصاب المسلمين هزة شديدة ، واستولى الجزع والفزع على نفر منهم حتى إن عمر رضى الله عنه قد هدد بالقتل من

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطى، و«سيرة ابن هشام».
(٢) الإمام أحمد فى مسنده (١/ ١٨٧) و«البداية والنهاية» (ج٣ ص٢٢).

يقول بوفاة رسول اللَّه ﷺ، وحدث ما ثبت اللَّه تعالى به أبا بكر فى هذا الموقف[١].

وصار أبوبكر خليفة المسلمين ، وكان ساعده الأيمن ووزيره عمر رضى اللَّه عنهما ، حتى جاءت اللحظات الأخيرة فى حياة الخليفة الأول ، فعهد بالأمر لعمر رضى اللَّه عنه.

وصعد هذا الجواد على المنبر وهو مكلوم الصدر ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : أمَّا بعدُ ، فقد ابتليتُ بكم وابتليتُم بى ، وخُلِّفت فيكم بعد صاحبى ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة ، فمن يحسن نزده حسنًا ، ومن يسئ نعاقبه ، ويغفر اللَّه لنا ولكم"[٢].

ثم يرسم نبراسًا للحكام كى يسيروا عليه ، وهو سائر عليه قبلهم ، فهو رمز للعدل ، فقال : "أنا أُخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان؛ حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر من الظَهْرِ ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين ، يصيبنى ما أصابهم "[٣] فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم يبين دوره بالتحديد قائلًا للربيع بن زياد : " هل تدرى ما مَثَلِى ومثل هؤلاء - الرعية- ؟ قال : وما مثلك ومثلهم؟ قال : مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم ، فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها بشىء؟ قال : لا يا أمير المؤمنين. قال : فكذلك مثلى ومثلهم. ثم قال عمر : إنى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، ويشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالك ، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له ، ليرفعها إلىَّ حتى أقصه منه. قال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين! أرأيت

(١) «رجال ونساء حول الرسول» لمحمد على قطب (ص١٥٥) بتصرف.

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ج٣ ص١٩٦)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى (١٤٣).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١٩٧)، و«عبقرية عمر» للعقاد، و«الفاروق عمر» د/ محمد حسين هيكل.

إن أدب أمير رجلًا من رعيته ، أيقصه منه ؟ فقال عمر : وما لى لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول اللّه ﷺ يقص من نفسه ؟!

وكتب على أمراء الأجناد : لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتكفروهم ، ولا تجرموهم فتفتنوهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم "[١].

إنه يرضى لنفسه :

وذو عِلْمٍ يَنامُ عَلَى التُّرابِ   وذُو جَهْلٍ يَنَامُ عَلَى الْحَرِيرِ

ويعتبر الخلافةَ تكليفًا لا تشريفًا ، فهى عبء ومسئولية وحمل ثقيل ، لا مراكب فارهة ، ولا مال لا تدرى من أين جيء به ، ولا ملابس فاقت الحرير ، بل ينزوى بجوارها الحرير حياءً لقلة ثمنه ، فيا بكاء دموعًا ودمًا على من لم يجعل عمر أسوته وقدوته ، وهنيئًا لك يا عمر :

عُلُوٌّ فِى الْحَياةِ وفِى الْمَمَاتِ   لَحَقًّا أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

أما غيره ، فيا من لا يرعوى :

وغيرُ تَقِىٍّ يَأْمُرُ الناسَ بِالتُّقَى   طَبِيبٌ يُدَاوِى والطَّبِيبُ مَرِيضُ

تَصِفُ الدَّواءَ لِذِى السِّقَامِ وذِى الضَّنَى   كَيْمَا يصِحُّ بِهِ وأَنْتَ سَقِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا   فَإِنِ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

إنه عمر الذى رفض الصلاة على المنافقين ، فعن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : لما أراد النبى ﷺ أن يصلى على عبد اللّه بن أُبى ، قال عمر : أليس اللّه نهاك أن تصلى على المنافقين ؟ قال : "أنا بين خيرتين : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٨٠]. فنزلت : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٢][التوبة : ٨٤].

وإقدامه على هذا الشيء برغم أنه من هدى النبى ﷺ أولًا ، ولم يؤاخذ عليه لصحة مقصده[٣].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ج٣ ص٢٠١).

(٢) البخارى (٢/ ٩٧)، والنسائى (٤/ ٣٧)، وابن ماجة (١٥٢٣)، والترمذى (٣٠٩٨).

(٣) «مناقب عمر» لابن الجوزى (ص ٤١).

وعندما أمر النبى ﷺ أبا هريرة رضى اللَّه عنه أن يبلغ حديث : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هذا الحائِطِ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » . فكان أول من لقى عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقال : هاتان نَعْلَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بَعَثَنِى بِهِمَا ، من لقيت يشهد أن لا إله إلا اللَّه مستيقنًا بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بين ثدييَّ بيده فخررت لاستى ، فقال : ارجع يا أبا هريرة . فرجعت إلى رسول اللَّه ﷺ ، فأجهشت بكاءً ، وركبنى عمر ، فإذا هو على أثرى ، فقال لى رسول اللَّه ﷺ : « مالك يا أبا هريرة؟ . . . » ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يا عُمَرُ ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ » . قال : يا رسول اللَّه ! بأبى أنت وأمى ابتعثت أبا هريرة بنعليك. . . فلا تفعل ، فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها ، فَخَلِّهِمْ يعملون . قال رسول اللَّه ﷺ : « فَخَلِّهِمْ »[1] .

إن كلمات النبى ﷺ ما زالت حية فى ذهنه تتوقد وتتوهج ، وما زال أثرها على فعاله رضى اللَّه عنه ، إنه يتذكر ذلك اليوم الذى دخل فيه على النبى ﷺ وهو متكئ على حصير قد أثر فى جنبه ، فقال للنبى ﷺ : كسرى وقيصر فى الديباج والحرير وأنت على حصير قد أثر فى جنبك ؟! قال : « أَفِى شَكٍّ أَنْتَ يا بْنَ الْخَطَّابِ ؟! هَذِهِ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَنَا فِى الْآخِرَةِ » .

إذن فليعمل عمر على هذا الضوء ، وبخاصة مع رعيته ، فعن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : "خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار ، فقال : يا أسلم! إنى أرى هاهنا ركبًا قد ضربهم الليل والبرد ، انطق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان ، وقِدْر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء - وكره أن يقول : يا أصحاب النار - . فقالت : وعليكم السلام. فقال : أدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو دع . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت : ضربنا الليل والبرد . قال : وما بال الصبية يتضاغون؟ قالت : الجوع . قال : أى شىء فى هذا القدر ؟ قالت : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، واللَّه بيننا وبين عمر. قال : أى رحمك اللَّه ! وما

(١) مسلم (٥٢).

يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ قال : فأقبل عَلَىَّ ، فقال : انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلًا من دقيق ، وكبة من شحم ، فقال : احمله عَلَىَّ. فقلت : أنا أحمله عنك . قال : أنت تحمل وزرى يوم القيام ؟! لا أُمَّ لك . فحملتُه عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذرى علىَّ وأنا أُحرك لك. وجعل ينفخ تحت القدر ، ثم أنزلها فقال : ابغنى شيئًا . فأتته بصحفة ، فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم . فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك اللّه خيرًا ؛ كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيرًا ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء اللّه. ثم تنحى ناحية عنها ، ثم استقبلها فربض مربضًا ، فقلت : لك شأن غير هذا . فلم يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدءوا ، فقال : يا أسلم! إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت"[1].

ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فأين الرعاة ؟ وأين المسئولية ؟ فكم ينفق على المحرمات ؟ وكم تُعطى أبواب الخير ؟ وتلكم واللّه قاصمة الظهر وبلية وطامة ،ولكن اللّه الموعد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وعن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : خرجت مع عمر رضى اللّه عنه فلحقت عمر امرأة شابة ، فقالت : يا أمير المؤمنين! هلك زوجى وترك صبية صغارًا ، واللّه ما ينضجون كراعًا ، ولا له زرع ولا ضرع ، وخشيت أن تأكلهم الضبع ، ،أنا بنت خُفاف بن إيماء الغفارى ، وقد شهد أبى الحديبية مع رسول اللّه ﷺ . فوقف معها عمر ، ولم يمض ، ثم قال : مرحبًا بنسب قريب. ثم انصرف إلى بعير ظهير مربوط فى الدار ، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا ،وجعل بينهما نفقة وثيابًا ، ثم ناولها خطامه ، ثم قال : اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتيكم اللّه بخير. فقال رجل : يا أمير المؤمنين! أكثرت لها. قال عمر : ثكلتك أمك ، واللّه إنى لأرى أبا هذه وأخاها

(١) «مناقب أمير المؤمنين» لابن الجوزى (ص ٦٠).

قد حاصرا حصنا زمانًا ، فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفىء سهمانهما فيه"[١].

وصورة مشرقة أخرى : فعن الأوزاعى : "أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه خرج فى سواد الليل ، فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتًا ، ثم دخل بيتًا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب على ذلك البيت ، فإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا؛ يأتينى بما يصلحنى ، ويُخرج عنى الأذى . قال طلحة : ثكلتك أمك طلحة ، أعثرات عمر تتبع ؟!"[٢].

إنه صاحب أبى بكر ، وتربية محمد ، وبذرة القرآن ، وزرع السنة النبوية ، إنه الراعى والخليفة الذى يتفقد رعيته ، ويرعى مصالحهم ، ويهتم بأمورهم ، وهذا ديدنه ، ولم يكن موقفًا واحدًا ، بل عشرات المواقف تُسجل على جبين التاريخ شامة عظيمة لهذا العلم ، يا ليتنا نضعها فى موقف القدوة والعظة والعبرة ، ومنها :

عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : قدمت رفقة من التجار ، فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبد الرحمن : هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب اللّه لهما ، فسمع عمر بكاء صبى ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقى اللّه وأحسنى على صبيك. ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه ، فأتى أمه فقال لها : ويحك ! إنى لأراك أُمَّ سوء ، ما لى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد اللّه ! قد أبرمتنى منذ الليلة ، إنى أريغه عن الفطام فيأبى. قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفُطُم. قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهرًا. قال : ويحك! لا تعجليه. فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال : يا بؤسًا لعمر! كم قتل من أولاد المسلمين ؟! ثم أمر مناديًا فنادى : أن لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام. وكتب بذلك إلى الآفاق : أن يُفرض لكل مولود فى الإسلام[٣] :

---

(١) البخارى (٤١٦٠، ٤١٦١).

(٢) رواه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١/ ١٢٧).

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ
وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِى وَعَجَلْ

ولقد بدأت إصلاحات عمر وضبطه للأمور ، فبدأ بتأسيس التاريخ الهجرى ، وقد جعل المحرم مبدأ العام الهجرى ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول من السنة السادسة عشرة من الهجرة؛ ليكون للمسلمين استقلالهم وذاتيتهم الخاصة بهم ، حتى فى التاريخ والتقويم.

ثم أكمل الفتوحات التى بدأها أبوبكر الصديق رضى اللَّه عنه ، وكانت له وجهة فى اختيار قواده وإرساله لهم إلى البلاد؛ فشرع فى فتح العراق وفارس ، وجعل على جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ، وسُجل فى سجل عمر وميزانه إن شاء اللَّه معارك عظيمة؛ كموقعة الجسر ، وإن كان فيها هزيمة إلا أن المسلم من المعارك يتعلم ، لكن بعدها موقعة البويب فى رمضان سنة (١٣هـ) قُتل فيها من الفرس قرابة مائة ألف قتيل ، ثم جاءت معركة أخرى بقيادة فارس مغوار هو سعد ابن أبى وقاص رضى اللَّه عنه ، نصر اللَّه تعالى فيها المسلمين نصرًا مؤزرًا ، وقُتل من الفُرس مقتلة عظيمة بقيادة رستم[١].

ثم جاء فتح المدائن وهزيمة الفرس هزيمة منكرة ، وغنموا غنائم كثيرة ، ثم انقض جيش المسلمين على المعركة الملقبة بفتح الفتوح - نهاوند - ضرب فيها قواد المسلمين أعظم الأمثلة والنماذج الحية للتفانى فى خدمة دينهم تحت قيادة عامة لبطل الإسلام وعملاقه عمر بن الخطاب ، واستشهد النعمان بن مقرِّن ، وحمل اللواء حذيفة بن اليمان ، ولما أُخبر عمر بموته بكى عمر رضى اللَّه عنه ، واسترجع وقال لمخبره : ومن ويحك ؟- أى : غيره - قال : فلان وفلان ، حتى عَدَّ لَهُ ناسًا كثيرين ثم قال : وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم. فقال عمر وهو يبكى : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ، ولكن اللَّه يعرفهم[٢].

---

(١) تفاصيل المعركة فى ترجمة سعد بن أبى وقاص.

(٢) الطبرى (ج٤ص٢٠)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٧٤) وما بعدها .

ثم حدث التوجه لفتح الشام ومصر ، فمن محل إلى قيسرين لبيسان وطبرية ، والقيادة لأبى عبيدة ، وكان عمر قد عزل خالدًا رضى اللَّه عنه خشية أن يفتتن الناس به بانتصاراته المذهلة فى المعارك ، وقد حدثته نفسه بعد ذلك فى عزله لخالد ، فقال : رحم اللَّه أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى .

ويئس هرقل من بقاء الشام تابعة له ، فودع سورية وهو يقول : عليك السلام يا سورية ، سلامًا لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومىٌّ أبدًا[1] .

ثم فتح أجنادين وبيت المقدس ، وقد ذهب لها عمر بنفسه؛ لرفض كبيرهم الفتح لأبى عبيدة ، وكتب لأهل إيلياء عهد ذمة وأمان : «بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص - السارق - فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله إلى الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم؛ فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكُتب وحُضر سنة

---

(١) «فتوح البلدان» للبلاذرى (ص١٧٢)، والطبرى (٣/ ٦٠٣)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٥٨).

خمس عشرة»[١]. وهكذا يعيش الناس فى كنف العدل.

ولابن تيمية رحمه اللَّه عبارة رائعة: «إن اللَّه ليقيم الدولة الكافرة إن كانت عادلة، ولا يقيم الدولة المسلمة إن كانت ظالمة». فكيف إذا كنا فى ظل عدل عمر حتى مع أعدائه أنفسهم، ولكنها تربية القرآن، وهو تلميذ محمد ﷺ.

وحانت الصلاة فرفض الصلاة داخل الكنيسة، وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة، ثم قال لكبيرهم: أرنى موضعًا أبنى فيه مسجدًا. فقال: على الصخرة التى كلم اللَّه عليها يعقوب. فوجد عليها ردمًا كثيرًا، فشرع فى إزالته، وتناوله بيده، فرفعه فى ثوب، واقتدى به المسلمون كافة، فزال لحينه، وأمر ببناء المسجد، ثم ولى أمراء الشام[٢].

ولا نستغرب هذا الصنيع، فالذى عودهم هذا هو نبضات القرآن فى قلوبهم، وحركت مشاعرهم، ورسخت هذه المبادئ، فقاموا قومة الخير والبر.

آياتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثَةٌ   قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ
دامَتْ لَدَيْنَا ففاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ   مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجائِبُهَا   وَلَا تَسْأَم عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

ثم كانت الهدية الكبرى للمصريين الذين ضجوا تحت حكم الرومان وظلمهم، فأمر عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه - بعد أن تبين أهمية فتح مصر - عمرًا بالتوجه إلى مصر، وكان ذلك فى نهاية سنة (١٨هـ)[٣].

ولم يتجاوز الجيش الذى قاده عمرو لفتح مصر أربعة آلاف جندى، فاستولى على الفرما وبلبيس وحصن بابليون، وقد سأل المقوقس مستغربًا عن حال هؤلاء الجنود، الذين بثوا الرعب فى قلوب أعدائهم بإذن اللَّه تعالى، فقالوا له: «رأينا

(١) الطبرى (ج٣ ص١٠٩).
(٢) «تاريخ الأمم الإسلامية» للخضرى (ج٢ ص٦)، و«تاريخ الخلفاء الراشدين» لعبد الوهاب النجار.
(٣) «فتوح البلدان» (ص ٢٤٩)، و«الفاروق عمر» د/ محمد حسين هيكل.

قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأجيرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم. فقال المقوقس : والذى يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من وضعهم »[1].

ثم عُقدت المعاهدة ، وتم فتح مصر ،وصارت تحت راية الإسلام من يومها.

ثم إن كتب البعض تدعى وتزعم باتهام عمر وعمرو بحرق مكتبة الإسكندرية ، وأنهم أعداء الحضارات ، ولكن أولًا : لم يشر أحد من مؤرخى المسلمين القدامى؛ كابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى والكندى ومن جاء بعدهم كالمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى إلى هذه الفرية ، ولم ترد إلا فى بعض المؤلفات ، ولم يذكروا عمن أخذوا هذه التهمة ، وهذا الدين دين الإسناد ، وقد علمهم الإسلام قبول الحق من أى شخص ، ورد الباطل على أى شخص.

وعمر رضى اللَّه عنه كان يضع جهازًا لمراقبة الولاة ، ومحاسبتهم حسابًا شديدًا على تقصيرهم ، بل كان يصل الأمر لاختبارهم حتى يضمن سلامتهم ونزاهتهم وعدم استغلال هذا المنصب ، بل الكل يخدم الإسلام.

فعن سعيد بن يربوع بن مالك : أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها فى صرة ، فقال للغلام : اذهب بها على أبى عبيدة بن الجراح ، ثم تَلَّه فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب هذا الغلام ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجاتك. فقال : وصله اللَّه ورحمه. ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة

---

(١) ابن عبد الحكم فتح مصر ،ص ٩٧ .

إلى فلان . حتى أنفذها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فوجده قد عد مثلها لمعاذ ابن جبل ، فقال : اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، وتله فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجاتك. فقال : وصله اللَّه ورحمه ، تعالى يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، واذهبى إلى بيت فلان بكذا. فانطلقت امرأة معاذ ، فقالت : ونحن واللَّه مساكين ، فأعطنا. ولم يبق فى الخرقة شىء إلا ديناران ، فرمى بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فسُر بذلك وقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض. رضوان اللَّه عليهم[١].

وإننا ورثة هؤلاء الصحب ، فلا نريد أن ينطبق علينا قول القائل :

وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صَدْقٍ　　أُسأنا فِى دِيارِهِمُ الصَّنيعا
إِذَا الْمَجْدُ الْقَدِيمُ تَوَارَثَتْهُ　　بناةُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَا

إن أمير المؤمنين لشفافية قلبه ، واعتقاده الجازم أن الإمارة مسئولية ملقاة على عاتقه ، لينزل فى تواضعه وكلماته منزلًا يُتعجب منه ، فعن سالم بن عبد اللَّه بن عمر : أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه كان يدخل يده فى دبر البعير ، ويقول : إنى خائف أن أُسأل عما بك - يريد علاجه - . ويقول : لو عثرت دابة بالعراق لخشيت أن يقال : لِمَ لَمْ تُعَبِّدْ - تمهد - لها الطريق يا عمر.

ولقد أسس عمر رضى اللَّه عنه بيت المال؛ لمعالجة المشاكل التى تعترض البلاد ، ووضع الخراج على أرض العراق ، ووضع الجزية على أهل الذمة ، فوضع على الغنى (٤٨ درهمًا) ، وعلى الوسط (٢٤ درهمًا) ، وعلى الفقير (١٢ درهمًا) ، وقال : لا يعوز رجلًا منهم درهم فى شهر فبلغ خراج السواد على عهده مائة وعشرين مليون درهم[٢].

وإنه مع نفسه ترى عجبًا فى مطعمه وملبسه ومشربه ومسكنه ، فعن زيد بن

(١) «مناقب عمر» لابن الجوزى (ص٦٣).

(٢) «الطبقات» لابن سعد (ج٣ ص٢٠٢)، و«تاريخ الخلفاء» (١٣٦).

أسلم ، عن أبيه قال : «كان زمان الرمادة إذا أمسى أُتى بخبز قد ثُرد فى الزيت ، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا ، فأطعمها الناس ، وغرفوا له طيبها ، فأُتى به ، فإذا قدر من سنام ومن كبد ، فقال : أنى هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين! من الجزور التى نحرنا اليوم. قال : بخٍ بخٍ ، بئس الوالى أنا أكلت أطيبها ، وأطعمت الناس كراديسها ، ارفع هذه الجفنة ، هات لنا غير هذا الطعام . فأتى بخبز وزيت ، فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ، ثم قال : ويحك يا يرفأ! ارفع هذه الجفنة حتى تأتى بها أهل بيت بثمغ ، فإنى لهم آتهم منذ ثلاثة أيام ،وأحسبهم مقفرين ، فضعها فى أيديهم»[١].

وكان يخاطب بطنه التى تئن من شدة الجوع : قرقرى أو لا تقرقرى ، فلا يوجد سوى الخبز والزيت . وإى واللَّه لقد خلق اللَّه تعالى رجالًا لحومة الوغى والمعارك والحروب ، ورجالًا لقصعة وثريد.

وكان رحمه اللَّه وقَّافًا عند حدود اللَّه تعالى ، بمجرد أن يسمع كلمة : اتق اللَّه ، التى فتح المجال على عهده بأن يقولوها لأى شخص كائنًا من كان ، فعن الحسن رحمه اللَّه قال : «كان بين عمر بن الخطاب رضوان اللَّه عليه وبين رجل كلام فى شيء ، فقال له الرجل : اتق اللَّه يا أمير المؤمنين. فقال له رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين : اتق اللَّه ؟! فقال له عمر رضى اللَّه عنه : دعه فليقلها لى ، نِعْمَ ما قال. ثم قال عمر : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[٢].

لكن هل حاز أولاده مال الدولة تحت أيديهم ؟ لا واللَّه ، بل كان شديدًا حتى على ولده وأهل بيته ، فعن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه عنهما قال : اشتريت إبلًا ورجعتها إلى الحمى ، فلما سمنت ، قال : فدخل عمر رضى اللَّه عنه عليه السوق ، فرأى إبلًا سمانًا ، فقال : لمن هذه الإبل السمينة ؟ فقيل : لعبد اللَّه بن عمر . فجعل يقول : يا عبد اللَّه بن عمر! بخٍ بخٍ ابن أمير المؤمنين. قال : فجعلت

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ١/ ٢٢٣).

(٢) «مناقب عمر» لابن الجوزى (ص١١٩).

أسعى فقلت : ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال : ما هذه الإبل؟ قلت : إبل اشتريتها ، وبعثت بها إلى الحمى أبتغى ما يبتغى المسلمون . قال : يقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين. يا عبد اللَّه بن عمر! اغد على رأس مالك ، واجعل باقيه فى بيت مال المسلمين»(١).

وكان يتمنى أن لم يُخلق ، فقد أخذ تبنة من الأرض ، فقال : «ليتنى كنت هذه التبنة ، ليتنى لم أُخلق ، ليت أمى لم تلدنى ليتنى لم أك شيئًا ، ليتنى كنت نسيًا منسيًّا»(٢).

ويقول : «وددت أنى أنجو منه - من أمر الخلافة - كفافًا لا لى ولا على»(٣).

ولقد كان كما قال النبى ﷺ : «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون - ملهمون - فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر»(٤).

وكما أخبر الصادق ﷺ ، فعن أسلم ويعقوب قالا : «خرج عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه يوم الجمعة إلى الصلاة ، فصعد المنبر ، ثم صاح : يا سارية بن زنيم! الجبل ، يا سارية بن زنيم! ظلم من استرعى الذئب الغنم. قال : ثم خطب حتى فرغ ، فجاء كتاب سارية بن زنيم إلى عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه : أن اللَّه عز وجل فتح علينا يوم الجمعة الساعة كذا وكذا ولتلك الساعة التى خرج فيها عمر فتكلم على المنبر. قال سارية : فسمعت صوتًا : يا سارية بن زنيم! الجبل ، ظلم من استرعى الذئب الغنم ، فعلوت أصحابى ونحن قبل ذلك فى بطن وادٍ ، ونحن محاصرو العدو ، ففتح اللَّه علينا ، فقيل لعمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه : ما ذلك الكلام؟ قالك واللَّه ما ألقيت له بالًا ، شيء أُتى به على لسانى»(٥).

---

(١) «مناقب عمر» لابن الجوزى (ص ١٢٠).
(٢) «مناقب عمر» لابن الجوزى (ص ١٢٤).
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) البخارى (٣٦٨٩).
(٥) «المناقب» لابن الجوزى (ص ١٣٠).

ولقد كان يدرك الأمور من أساسها ، فقد خرج يستسقى يومًا بالناس ، فما زاد على الاستغفار حتى رجع ، قالوا : يا أمير المؤمنين! ما نراك استسقيت . قال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التى يستنزل بها المطر . ثم قرأ : ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح : ١٠، ١١]. ثم قرأ : ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود : ٥٢].

وهو يتعامل مع رعيته والصحابة كأنه يخشى عليهم الفتنة ، وأن تؤثر عليهم الدنيا ، فها هو يرى جابر بن عبد اللَّه - كما ورد فى «الزهد» للإمام أحمد - فى يده لحمًا معلقًا ، قال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتهيت لحمًا فاشتريته . فقال عمر : كلما اشتهيت اشتريت ؟! أما تخاف هذه الآية : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف : ٢٠].

وهو يكرم العلماء حتى لو كانوا صغارًا كما حدث مع ابن عباس رضى اللَّه عنهما فى تفسيره لسورة النصر ، وكما يقول الزهرى : « كانَ جُلَسَاءُ عُمَرَ أَهْلُ القُرآنِ كهولًا أو شبابًا » .

إنه يخاف يومًا عبوسًا قمطريرا ، يوم :

يَكُوُن عَلَى حَالٍ لَتُسْأَلَنَّه
يومَ تَكُونُ الأُعْطِياتُ مِنَّه
إِمَّا إِلَى نارٍ وإِمَّا جَنَّه

وهل للبدع والضلالات مجال فى دولة هذا الفاروق ؟ إنه لشدة كراهته للبدع ولأهلها كان يشتد فى معاملتهم ردعًا لأمثالهم ، وهذا يوضح ذلك : فعن السائب ابن يزيد أنه قال : «أتى رجل عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه فقال : يا أمير المؤمنين! إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل القرآن. فقال : اللَّهم أمكنى منه. قال : فبينا عمر ذات يوم جالس يغدى الناس إذ جاءه وعليه ثياب وعمامة ، حتى إذا فرغ فقال : يا أمير المؤمنين! [الذاريات : ١، ٢]. فقال عمر رضى اللَّه عنه : أنت هو . فقام إليه ، وحسر عن ذراعيه ، فلم يزل يضربه حتى سقطت عمامته ، فقال :

والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقًا لضربت رأسك ، ألبسوه ثيابه ، واحملوه على قتب ، ثم أخرجوه حتى تقدموا عليه بلاده ، ثم ليقم خطيب ، ثم ليقل : إنَّ صبيغًا ابتغى العلم فأخطأه. فلم يزل وضيعًا فى عمره حتى هلك" .

وورد أن عمر ضربه حتى أدماه ، ثم لما تاب ولم يعد لتنطعه أمر الناس الذين قاطعوه بالكلام معه ، وعامله باللين بعدها .

ثم هو يحذر من التجرؤ على القرآن والسنة ، مثل آية الرجم التى نُسخت ، فيقول : ثم إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم ، وأن يقول قائل : لا نجد حدين فى كتاب اللَّه ، فقد رأيت رسول اللَّهِ ﷺ رجم ، ورجمنا بعده ، فواللَّه لولا أن يقول الناس : أحدث فى كتاب اللَّه ، لكتبتها فى الصحف ، فقد قرأناها : (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما) .

إنه صلاح نفسه ، وقوة شخصيته ، وإيمانه العميق بأبعاد مسئوليته ، وخلقه القويم ، هذا الذى خرَّج لنا هذا البطل .

صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ ... فَقَوِّمْ النَّفْسَ بِالْأَخْلاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِى خَيْرِ عَافِيَةٍ ... والنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِى مَرْتَعٍ وَخِمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلْقَهُ بِالْخَيْرِ ضِقْتَ بِهِ ... ذَرْعًا وَإِنْ تَلْقَهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ

وقد سن للقضاء نظامًا يسير الناس عليه ،وضمن ذلك فى كتاب ، وأرسله لأبى موسى الأشعرى ، فقال : « بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى عبد اللَّه بن قيس ، سلام عليك ، أما بعد : فالقضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر . . . »[١] .

وأقام عمر مدنًا جديدة فيما يسمى بتمصير الأمصار ، تكون قواعد منتظمة

(١) «البداية والنهاية»، و«تاريخ الأمم الإسلامية» للخضرى (ج٢ص٩-١٠).

تنطلق منها الجيوش؛ مثل البصرة والكوفة كما يشير لذلك الطبرى فى الاستئذان ببناء البيوت بالقصب ثم باللبن[١].

وكان محبوبًا - رضى اللَّه عنه - من أصحابه برغم قوته وشدته فى الحق، قال علىُّ بنُ أبى طالب رضى اللَّه عنه وهو عند رأس عمر وهو طعين: هذا أَحَبُّ الْأُمَّةِ إلىَّ أن أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ صحيفَتِهِ[٢].

وهذه تُهدى لطوائف لا تميز من الشيعة وأضرابهم، فهذا إمامهم إن كانوا يقتدون به، والظن بهم أنهم يسمعون ويقرءون ما يريدون، فليستمعوا، وإلا باللَّه عليكم لما لا تتفق مراجعكم قاطبة وعلماؤكم جميعًا على رأى فى مسائل أنتم تعدونها عندكم من الأساسيات؟ ومن ظن غير هذا فليراجع كتب قدمائكم، ومن ألف حديثًا لا يجد إلا التناقض والدس والتشويه، واللَّه ورسوله من هذا برآء، وعلى رضى اللَّه عنه برىء من هذا.

ولما كَثُرَتْ رَعِيَّتُهُ - رضى اللَّه عنه - دعا اللَّهَ أن يقبضه، فعن حفصة - رضى اللَّه عنها - قالت: سمعت عمر - رضى اللَّه عنه - يقول: اللَّهُمَّ قتلًا فى سبيلك، ووفاةً فى بلد نبيِّك. قلتُ: وأنى يكون ذلك؟ قال: يأتى اللَّه به إذا شاء.

إنها نهاية بطل، كانت وليدة مؤامرة قذرة من أعداء اللَّه، اشترك فيها أبو لؤلؤة المجوسى من الفرس، والهرمزان ملك الأهواز سابقًا، وجفينة النصرانى من الحيرة، وكان عمر - رضى اللَّه عنه - لا يتخذ الحرس حوله، وأُسند الأمر لأبى لؤلؤة، وكان ينظر إلى السَّبْيِ الصغار، ويمسح على رءوسهم، ويبكى ويقول: إن العرب أَكَلَتْ كبِدِى[٣]. مما يدل عل حنقه على المسلمين.

ولنا فى اللحظات الأخيرة دروس وعبر عظيمة[٤]، فعن عمرو بن ميمون قال:

(١) الطبرى (ج٤ صـ٤٣، ٤٤)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ٨٣).

(٢) مسلم.

(٣) «الطبقات» لابن سعد (ج٣ص٢٥١)، و«عبقرية عمر» للعقاد، و«الفاروق عمر» لهيكل.

(٤) مجموعة أشرطة لأبى إسحاق الحوينى.

«إنى لقائم ما بينى وبين عمر إلا عبد اللَّه بن عباس غداة أُصيب ،وكان إذا مر بين الصفين قال : استووا ، حتى إذا لم ير فيهن خللًا تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر ، فسمعته يقول : قتلنى - أو أكلنى - الكلب - حين طعنه- ، فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا ، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنسًا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه»[(١)].

ويبين حرصه رحمه اللَّه على الصلاة حتى فى اللحظات الأخيرة ، حينما تناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه ، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى ، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون : سبحان اللَّه ، سبحان اللَّه ، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال لابن عباس : انظر مَن قتلنى. فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة. .قال الصَّنُع - الصانع الحاذق فى صناعته-. قال : نعم. قال : قاتله اللَّه ، لقد أمرت به معروفًا ، الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى بيد رجل يدعى الإسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس أكثرهم رقيقًا -. فقال : إن شئت فعلت - أى : قتلناهم -. قال : كذبت ، بعدما تكلموا بلسانكم ،وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم ؟!.

فاحتمل إلى بيته ، فانطلقنا معه ، وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه . فأُتى بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أُتى بلبن فشربه ، فخرج من جرحه ، فعلموا أنه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بشرى اللَّه لك من صحبة رسول اللَّه ﷺ ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة. قال : وددت أن ذلك كان كفافًا لا علىَّ ولا لى . فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردوا علىَّ الغلام. قال : ابن أخى! ارفع إزارك ، فإنه أنقى لثوبك

(١) البخارى (٣٧٠٠).

وأتقى لربك ، يا عبد اللَّه بن عمر! انظر ما عليَّ من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه ، قال : إن وفَّى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم ، فأدِّ عنى هذا المال ، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل لها : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فسلَّم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويقول لك : يستأذن أن يُدفن مع صاحبيه. فقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى. فلما أقبل قيل : هذا عبد اللَّه بن عمر قد جاء. قال :فارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت. قال : الحمد لله ، ما كان من شىء أهم إلى من ذلك ، فإذا أنا قضيت فاحملونى ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلونى ، وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين.

وكان قد أوصى أن الأمر فى الستة الذين مات النبى ﷺ وهو عنهم راضٍ ، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسرن معها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، فاستأذن الرجال فولجت داخلًا لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فلما قُبض خرجنا به ، فانطلقنا به ، فسلم عبد اللَّه بن عمر ، وقال : يستأذن عمر. قالت : أدخلوه ، فأُدخل فوُضع هنالك مع صاحبيه.

وعن عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه قال : «أنا آخركم عهدًا بعمر؛ دخلت عليه ورأسه فى حجر ابنه عبد اللَّه ، فقال : ضع خدى بالأرض. قال : فهل فخذى والأرض إلا سواء ؟

قال : ضع خدى بالأرض لا أم لك (فى الثانية أو الثالثة). وسمعته يقول : ويلى وويل أمى إن لم تغفر لى . حتى فاضت نفسه[1].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ج٣ ص٢٥١)، والطبرى (ج٤)، و«تاريخ الخلفاء» =

وهكذا ترى يمتزج حب السنة وهموم من يلى الأمر من بعده؛ رفقًا بحال المسلمين ، الكليات مع رفع الثياب فى بوتقة واحدة ، لا انفصال فيها ، وحرصًا على إعطاء كل ذى حق حقه من تأدية ديونه ، وعدم ترك حقوقهم بدون إرجاعها لهم ، واستئذان عائشة رضى اللّٰه عنها فى الدفن بجوار النبى ﷺ.

عين جودى بعبرة ونحيب ... لا تملى على الإمام الصليب

فجعتنى المنون بالفارس المعلـ ... ـم يوم الهياج والتأنيب

عصمة الدين والمعين على الدهر ... وغيث الملهوف والمكروب

و

عليك سلام من أمير وباركت ... يد اللّٰه ذاك الأديم الممزق

قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها ... بوائق فى أكمامها لم تُفتق

فمن يسع أو يركب جناحى نعامة ... ليدرك ما قدمت المس يسبق

فاللّٰهم اجعل لنا قلوبًا واعية ، وعقولًا فاهمة ، وعلمًا نافعًا نأخذ به العبرة والعظة .

= للسيوطى (١٣٤)، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«تاريخ الإسلام» للذهبى، و«عبقرية عمر» للعقاد، و«الفاروق عمر» لهيكل.

[٣] عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين

إنه صاحب الحياء الذى يستحيى منه النبى ، وتستحى منه الملائكة ، إنه المبشر بالجنة ، إنه الرفيق فى معاملاته ، إنه الجواد المنفق ، صاحب اليد السخية ، إنه ثالث الخلفاء الراشدين رضى اللَّه عنهم جميعًا ، إنه الذى اشترى بئر رومة من ماله الخاص ، والذى جهز جيش العسرة أو أغلبه من ماله الخاص ، إنه قوام الليل صاحب التلاوة للقرآن ، شهد بيعة الرضوان ، وهاجر الهجرتين للحبشة ، ومن ختم القرآن فى ركعة فى قيام الليل ، وما عُلم عنه شىء قبيح قط ، إنه عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه ، وله جملة من الفضائل رضى اللَّه عنه.

فعن أبى موسى رضى اللَّه عنه : "أن النبى دخل حائطًا وأمرنى بحفظ باب الحائط ، فجاء رجل يستأذن ، فقال : «ائذن له وبشره بالجنة». فإذا أبوبكر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فقال : «ائذن له وبشره بالجنة». فإذا عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فسكت هنيهة ثم قال : «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه». فإذا عثمان بن عفان»[١].

وعن عائشة أم المؤمنين رضى اللَّه عنها : أن رسول اللَّه ﷺ كان جالسًا كاشفًا عن فخذه ، فاستأذن أبوبكر ، فأذن له وهو على حاله ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو على حاله ، ثم استأذن عثمان ، فأرخى عليه ثيابه ، فلما قاموا قلت : يا رسول اللَّه! استأذن عليك أبوبكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك ، فلما استأذن عثمان أرخيتَ عليك ثيابك فقال : «يا عائِشَةُ ! ألا اسْتَحيى مِن رجُلٍ واللَّهِ إنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَسْتَحِيى مِنْهُ ؟! »[٢].

وعن عثمان رضى اللَّه عنه قال : «جاء رجل من أهل مصر يحج البيت ، فرأى قومًا جلوسًا ، فقال : من هؤلاء القوم؟ قالوا : هؤلاء قريش. قال : فمن الشيخ

---

(١) البخارى (٣٦٩٥).

(٢) مسلم (٢٦).

فيهم ؟ قالوا : عبد اللَّه بن عمر . قال : يا ابن عمر! إنى سائلك عن شىء ، فحدثنى عنه ، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب عن يوم بدر ولم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : اللَّه أكبر . قال ابن عمر : تعال أُبَيِّنْ لك؛ أما فراره يوم أحد فأشهد أن اللَّه عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول اللَّه ﷺ ، وكانت مريضة ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ » . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول اللَّه ﷺ عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول اللَّه ﷺ بيده اليمنى : «هذه يد عثمان» ، فضرب بها على يده فقال : «هذه لعثمان» . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك[١] .

وعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : كنت عند النبى ﷺ ، فقال : « يا عائشة ! لو كان عندنا من يحدثنا» . فقلت : ألا أبعث إلى أبى بكر ؟ فسكت ثم قال : «لو كان عندنا من يحدثنا» ، فقلت : ألا أبعث إلى عمر ؟ فسكت . قالت : ثم دعا وصيفًا بين يديه ، فساره فذهب . قالت : فإذا عثمان يستأذن ، فأذن له فناجاه النبى ﷺ طويلًا ثم قال : « يا عُثمانُ ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْمِصُكَ قَمِيصًا ، فَإِذَا أَرَادَكَ الْمُنافِقُونَ عَلَى أَنْ تَخْلَعَهُ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ وَلَا كَرَامَةَ - يقولها مرتين أو ثلاثًا -»[٢] .

ولما شرب الوليد الخمر وكلمه البعض قال : فقصدت عثمان حتى خرج إلى الصلاة ، قلت : إن لى إليك حاجة ، وهى نصيحة لك . قال : يا أيها المرء منك . قال : معمر : أُراه قال : أعوذ باللَّه منك ، فانصرفت فرجعت إليهما إذ جاء رسول عثمان ، فأتيته فقال : ما نصيحتك ؟ فقلت : إن اللَّه سبحانه بعث محمدًا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ،وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ ، فهاجرت الهجرتين ، وصحبت رسول اللَّه ﷺ ، ورأيت هديه ، وقد أكثر الناس فى شأن الوليد . قال : أدركت رسول اللَّه ﷺ ؟ قلت : لا ، ولكن خلص إلى من علمه ما

---

(١) البخارى (٣٦٩٨، ٤٠٦٦) .

(٢) أحمد (٦/ ٧٥،٨٦) ، والترمذى (٣٧٠٥) وحسنه الشيخ الألبانى .

يخلص إلى العذراء فى سترها . قال : أما بعد ، فإن اللَّه بعث محمدًا ﷺ بالحق ، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ ، وآمنت بما بُعث به ، وهاجرت الهجرتين كما قلت ، وصحبت رسول اللَّه ﷺ ، وبايعته ، فواللَّه ما عصيته ، ولا غششته حتى توفاه اللَّه تعالى ، ثم أبوبكر مثله ، ثم عمر مثله ، ثم استخلفت ، أفليس لى من الحق مثل الذى لهم ؟

قلت : بلى . قال : فما هذه الأحاديث التى تبلغنى عنكم ؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه بالحق إن شاء اللَّه تعالى . ثم دعا عليًا ، فأمره أن يجلده ، فجلده ثمانين»[١] .

وعن ابن عمر رضى اللَّه عنهما قال : «كنا فى زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحدًا ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم»[٢] .

ومن صفاته البارزة رضى اللَّه عنه كثرة النفقة فى وجوه الخير والبر والطاعة وحاجات المسلمين ،وهو المعدود فى الخيرين .

لَعُمرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّى لِرِيبَةٍ   وَلَا حَمَلَتْنِى نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِى
وَلَا قَادَنِى سَمْعِى وَلَا بَصَرِى لَهَا   وَلَا دَلَّنِى رَأْيِى عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِى
وَأَعْلَمُ أَنِّى لَمْ تُصِبْنِى مُصِيبَةٌ   مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِى
وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ بِمُنْكَرٍ   مِنَ الْأَمْرِ ما يَمْشِى لِمِثْلِهِ مِثْلِى

ولقد كان رحمه اللَّه عفيفًا مقدامًا على الخير :

نَارِى ونارُ الجارِ وَاحِدَةٌ   وَإِلَيْهِ قَبْلِى تَنْزِلُ القِدْرُ
مَا ضَرَّ جَارِى إِذْ أُجَاوِرُهُ   أَلَّا يَكُونَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ
أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِى خَرَجَتْ   حَتَّى يُوَارِى جَارَتِى الْخِدْرُ
وَيَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا   سَمْعِى وَمَا بِى غَيْرُهُ وَقْرُ

(١) البخارى (٣٦٩٦) .
(٢) البخارى (٣٦٩٨) .

وهؤلاء هم أهل الكرم والجود ، أصحاب الأخلاق الكريمة ، لا اللئام.

إِذَا امْتَلَأَتْ كَفُّ اللَّئِيمِ مِنَ الْغِنَى   تَمَرَّدَ كَالْمِرْحاضِ كُلَّمَا زَادَ أَنْتَنَا

أَمَّا كَرِيمُ الأَصْلِ كَالْغُصْنِ كُلَّمَا   تَحَمَّلَ أَثْمَارًا تَمَايَلَ وَانْثَنَى

وحيث يتفجر الخير من كل جوانبه ، وكلما وسع عليه بالفضل عاد مردود فضله إلى الناس برًا وخيرًا بلا انقطاع ، وهذا مثل القائل :

يا لَهْفَ نَفْسِى عَلَى مَالٍ أُفَرِّقُهُ   عَلَى الْمُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ

إِنَّ اعْتِذَارِى إِلَى مَنْ جَاءَ يَسْأَلُنِى   مَا لَيْسَ عِنْدِى لَمِنْ إِحْدَى الْمُصِيبَاتِ

ونسبه يدل على أنه قرشى أصيل ، فهو عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى ، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، وُلد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول اللَّه ﷺ ، وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة ، حييًا عفيفًا ، ولما بعث اللَّه تعالى محمدًا ﷺ كان عثمان من السابقين إلى الإسلام على يد الصديق رضى اللَّه عنه[1].

وزوَّجه عليه السلام بنته رقية ، فلما آذى المشركون المسلمين هاجر رضى اللَّه عنه مع زوجه إلى بلاد الحبشة ، ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، فلما أذن له اللَّه تعالى بها هاجر إليها هو وزوجه ، وحضر مع رسول اللَّه ﷺ كل مشاهده ، ولكنه لم يحضر بدرًا لشغله بتمريض زوجه التى ماتت عقب انتصار المسلمين فيها ، وأسهم له رسول اللَّه ﷺ فى غنيمتها ، ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم[2].

وكان ممن عفا اللَّه تعالى عنهم فى أحد ، وكان فى عمرة الحديبية سفيرًا بين رسول اللَّه ﷺ وبين قريش ، فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبى ﷺ أصحابه بيعة الرضوان ، وقال بيده اليمنى : « هذه يدُ عثمانَ » ، فضرب بها على يده ، فقال :

---

(١) «تاريخ الخلفاء» (ص ١٤٧)، و«عثان بن عفان» للشيخ صادق مرجون.

(٢) «تاريخ الخلفاء»، و«تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٧٧).

« هَذِهِ لِعُثْمَانَ »[١].

وعن عبد الرحمن بن خباب رضى اللّه عنه قال : خطب النبى ﷺ ، فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان : علىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها . ثم حث فقال عثمان : علىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها . قال : ثم نزل رسول اللّه ﷺ مرقاه من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان : علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . فرأيت النبى ﷺ يقول بيده يحركها : « مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا »[٢]. وسمَّاه النَّبِىُّ ﷺ ذا النورَيْنِ ، ولَمَّا مَاتَتْ زَوْجَتُهُ الأُخْرَى قالَ لَهُ : « لَوْ كَانَتْ لَنَا ثَالِثَةٌ لَزَوَّجْنَاكَ » .

ولقد مرت عليه خلافة أبى بكر رضى اللّه عنه بعد وفاة النبى ﷺ سامعًا مطيعًا لخليفة المسلمين أبى بكر ، ثم عمر كذلك ، ثم حانت لحظة وفاة عمر رضى اللّه عنه ، ففى رواية البخارى : «فقالوا - أى لعمر - : أوص يا أمير المؤمنين - استخلف -. قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفى رسول اللّه ﷺ وهو عنهم راض.

فسمى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبداللّه بن عمر ، وليس له من الأمر شىء - كهيئة التعزية له - ، فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة. وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين : أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرًا ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأنصار خيرًا ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة المال ، وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيرًا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم ، وتُرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة اللّه وذمة رسول اللّه ﷺ ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولا يكلفوا إلا طاقتهم. فلما قُبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد اللّه بن عمر ، ثم

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٠٢)، و«ذو النورين» للعقاد.

(٢) أحمد (٤/ ٧٥)، والترمذى (٣٧٠).

قال : يستأذن عمر بن الخطاب. قالت : أدخلوه. فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فُرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير : قد جعلت أمرى إلى علىّ . فقال طلحة : قد جعلت أمرى إلى عثمان. وقال سعد : قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف. فقال عبدالرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام ، لينظرن أفضلهم فى نفسه. فأسكت الشيخان - عثمان وعلى- ، فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلىّ ؟ والله علىّ أن لا آلو عن أفضلكم. قالا : نعم. فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ ، والقدم فى الإسلام ما قد علمت ، فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ، ولئن أمَّرت عثمان لتسمعن ولتطيعن. ثم خلا بالآخر ، فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه وبايع له على ، وولج أهل الدار فبايعوه»[١]. .

وما يذكره كثير من المؤخرين؛ كابن جرير وغيره عن رجال لا يُعرفون : أن عليًا قال لعبد الرحمن : خدعتنى ، وإنك إنما وليته لأنه صهرك ، وليشاورك كل يوم فى شأنه. وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن : ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ١٠] إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت فى الصحاح ، فهى مردودة على قائلها وناقليها ، والله أعلم.

والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص ، الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ، ومستقيمها وسقيمها[٢].

وأول خطبة خطبها عثمان رضى الله عنه لما بويع ، خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر النبى ﷺ ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، وقال : «إنكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما

(١) البخارى (٣٧٠٠)، و«تاريخ الخلفاء» (١٥٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» (١٥٩)، و«مروج الذهب» للمسعودى (١/ ٥٤٣).

(٢) «البداية والنهاية» (ج٧/ ص١١٩).

تقدرون عليه ، فلقد أُوتيتم صبحتم أو أمستيم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغُرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم باللَّه الغرور ، واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلًا ؟ ألم تلفظهم ؟! ارموا بالدنيا حيث رمى اللَّه بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن اللَّه قد ضرب لها مثلًا بالذى هو خير ، فقال تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[الكهف : ٤٥ ، ٤٦]. قال : وأقبل الناس يبايعونه[١] .

وأما أول حكومة حكم فيها فقضية عبيد اللَّه بن عمر ، وذلك أنه غدا على ابنة أبى لؤلؤة قاتل عمر فقتلها ، وضرب رجلًا نصرانيًّا يقال له جفينة بالسيف فقتله ، وضرب الهرمزان الذى كان صحاب تستر فقتله ، وكان قد قيل : إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر ، فاللَّه أعلم. وقد كان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده ، فلما ولى عثمان وجلس للناس ، كان أول ما تحوكم إليه فى شأن عبيد اللَّه ، فقال على : ما من العدل تركه ، وأمر بقتله ، وقال بعض المهاجرين : أيُقتل أبوه بالأمس ، ويُقتل هو اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين! قد برأك اللَّه من ذلك؛ قضية لم تكن فى أيامك ، فدعها عنك. فودى عثمان رضى اللَّه عنه أولئك القتلى من ماله لأن أمرهم إليه؛ إذ لا وارث لهم إلا بيت المال ، والإمام يرى الأصلح فى ذلك ، وخلى سبيل عبيد اللَّه[٢] .

وفى بداية خلافته رضى اللَّه عنه استعمل سعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه على الكوفة عملًا بوصية عمر[٣] ، ولكنه عزله بعدها ، وولى الوليد بن عقبة ، وغزا الوليد أذربيجان لما نقضوا العهد ، وأغار على أهل موقان والبير والطيلسان ، ففتح وغنم ، وطلب أهل كورأز الصلح فصالحهم ، ثم سير سلمان الباهلى لأهل أرمينية

---

(١) «البداية والنهاية» (ج٧/ ص١٢٠).

(٢) «البداية والنهاية» (ج٧/ ص ١٢٠، ١٢١).

(٣) «تاريخ الخلفاء» (١٥٤)، والطبرى (٤/ ٢٤٤).

فى اثنى عشر ألفًا ، فشتت شملهم ، ورجع بغنائمهم للوليد.

ولما نُقل إلى عثمان خبر شرب الوليد الخمر - وسيأتى تفصيله - ولى مكانه سعيد بن العاص ، وفى عهده فتحت طبرستان ، وسار معه الحسن والحسين ابنا علىٍّ رضى اللَّه عنهم ، وابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن الزبير وحذيفة بن اليمان ، وغيرهم من كبار الصحابة ، فقاتل أهلها ، ثم طلبوا الصلح فصالحهم ، وكان ذلك فى السنة الثلاثين[١].

وفى البصرة كان واليها أبو موسى الأشعرى رضى اللَّه عنه ، فأقام فيها إلى السنة التاسعة والعشرين ، ثم عزله عثمان ، وولى بدله عبد اللَّه بن عامر ، وجمع له جند أبى موسى وجند عثمان بن أبى العاص الثقفى من عمان والبحرين[٢].

وفى عهده انتقض أهل فارس ، فسار إليهم عبيد اللَّه ، فهزم فسار إليهم ابن عامر بجيش كثيف ، فقاتلهم قتالًا شديدًا حتى هزمهم ، وفتح إصطخر عنوة.

وفى عهده قُتل يزدجرد ملك الفرس ، وهو آخر ملوكهم ، وقد قُتل وحيدًا شريدًا طريدًا؛ قُتل على يد أعجمية ، وكان يتمنى إذ ذاك أن لو وقع فى يد العرب المسلمين ، فإنهم كانوا يبقون عليه ، فيعيش منعمًا فى ظل الإسلام الظليل ، ولكن أنَّى له ذلك ، والشقاء متى غلب لا يُرد[٣].

وصالح خراسان ، ثم قصد نيسابور ، فصالحه أهلها على ألف ألف درهم ، ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان ، ثم فتح الأحنف الطالقان صالحًا ، وسار إلى بلخ فصالحه أهلها على أربعمائة ألف درهم ، ثم سار إلى خوارزم فلم يتمكن من فتحها ، فعاد عنها[٤].

ثم رجع ابن عامر بعد أن فتح هذه البلاد العظيمة مرة ثانية ، فقيل له : ما فتح

---

(١) «البداية والنهاية» (ج٧/ ١٦٩)، و«تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ١٩١).

(٢) الطبرى (٣/ ٢٦٤)، و«البداية والنهاية» (٧/ ١٦٨).

(٣) الطبرى (٤/ ٢٦٤).

(٤) «البداية والنهاية» (٧/ ١٧٥).

اللَّه على أحد مثل ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان ، فقال : لا جرم ، لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمرًا من موقفى هذا . فأحرم بعمرة من نيسابور ، وكل هذا فى ميزانه رضى اللَّه عنه إن شاء اللَّه .

وهكذا هؤلاء كان لهم فى كل عبادة يضربون بسهم ، ولا يرضون بالتحزب على جزء من الدين ، فهذا غير سديد .

حَسِبُوا بِأَنَّ الدِّينَ عُزْلَةُ راهِبٍ ... واسْتَمْرَءُوا الأورادَ والأَذْكارَا

عَجَبًا أَرَاهُمْ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ ... وَأَرَى الْقُلُوبَ بِبَعْضِهِ كُفَّارَا

والدِّينُ كَانَ وَلَا يَزَالُ فَرَائِضًا ... وَنَوَافِلًا لِلَّـهِ واسْتِغْفَارَا

والدِّينُ مَيْدَانٌ وصِمْصَامٌ وَفِرْ ... سَانٌ تُبِيدُ الشَّرَّ والْأَشْرَارَا

والدِّينُ حُكْمٌ بِاسْمِ رَبِّكَ قَائِمٌ ... بِالْعَدْلِ لَا جَوْرًا وَلَا اسْتِهْتَارَا

ثم كان الشام قد جمعها عثمان لمعاوية رضى اللَّه عنهما ، فغزا معاوية الروم ، فبلغ عمورية ، ووجد الحصون التى بين طرسوس وأنطاكية خالية ، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وفاليقلا وأزدشاط ، وسار سليمان بن ربيعة على آران ففتح البلقان صلحًا على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم ، واشترط عليهم الجزية على الرءوس ، والخراج على الأرض[1] .

وفى السنة الثامنة والعشرين فتح معاوية جزيرة قبرص ، وغزا معه جمع كثير من كبار الصحابة ، فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان ، التى أخبرها رسول اللَّه ﷺ أنها فى أول من يغزو البحر ، فعن أنس رضى اللَّه عنه : أن رسول اللَّه ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول اللَّه ﷺ فأطعمته ، ثم جلست تفلى رأسه ، فنام رسول اللَّه ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسول اللَّه ؟ قال : «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِى عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، يركبون ثبَج هذا البحر ، ملوكًا على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة - شك

---

(١) الطبرى (٤/ ٢٧٤)، و«البداية والنهاية» (٧/ ١٧٤).

أيهما قال -». قالت : فقلت : يا رسول اللَّه ! ادع اللَّه أن يجعلنى منهم. فدعا لها ، ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحك يا رسول اللَّه ؟ قال : « ناس من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبيل اللَّه. . . ») كما قال فى الأولى ، قالت : يا رسول اللَّه ! ادع اللَّه أن يجعلنى منهم. قال : «أنتِ من الأولين»[١].

وسار من الشام لقبرص والى مصر عبد اللَّه بن سعد بنفسه ، فاجتمعا عليها ، فصالحهم أهلها على سبعة آلاف كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها ، وفى هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان ، واستعمل معاوية على غزو البحر عبد اللَّه بن قيس ، فغزا خمسين غزوة من بين صائفة وشاتية فى البحر والبر ، ولم يغرق أحد من جيشه ، ولم ينكب ، ثم خرج مرة فى قارب طليعة ، فانتهى لمرفأ من الروم فدروا به فجاؤوا فقتلوه[٢].

وفى مصر كان عامله عليها عمرو بن العاص رضى اللَّه عنه ، وكان الروم الذين بمصر راسلوا الروم ، فجاءوا إليها ، وجاء المسلمون ، فاقتتلوا مقتلة عظيمة ، وهدم عمرو سور مدينة الإسكندرية[٣] ، وانتصر المسلمون.

وسير عبد اللَّه بن سعد بن أبى سرح - أى : عمرو - لأطراف إفريقية من طرابلس لطنجة ، وأمر عبد اللَّه بن نافع مع عبد اللَّه بن سعد ، ووطؤا أرض إفريقية ، وجمع بعدها لابن سعد الخراج والجند ، وعزل ابن العاص ، وقاتل ملك إفريقية (جرجير) الذى ولى من قبل الروم ، والتقى معه المسلمون فى سبيطلة عاصمة الملك ، ورفض دفع الجزية والإسلام وأبى ، ودام القتال بينهم أيامًا ، يقتتلون كل يوم إلى الظهر ثم يعودون[٤].

---

(١) البخارى ومسلم، و«البداية والنهاية» (٧/ ١٦٧).

(٢) الطبرى (٤/ ٢٦١)، وما بعدها، و«البداية والنهاية» (٧/ ٦٧)، وما بعدها.

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ١٦٥)، و«تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ١٨٢).

(٤) الطبرى (٣/ ٢٥٣)، وما بعدها، و«تاريخ الإسلام» (٣/ ١٨٤).

وقد أمدهم عثمان بجيش يرأسه عبد اللَّه بن الزبير ، فلما وصلهم أشار على ابن سعد أن يقسم الجيش قسمين؛ قسم يقاتل إلى الظهر ، ثم يخلفه الآخر حتى يهن المشركون ، واستمر القتال حتى ضعف المشركون ، وانهزموا شر هزيمة ، وقُتل جرجير على يد عبد اللَّه بن الزبير ، وفُتحت المدينة.

وسير سرية إلى حصن الأجم ، فحاصرته ثم فتحته صلحًا ، ثم صالح ابن سعد أهل إفريقية على الفى ألف وخمسمائة ألف دينارٍ ، وأرسل إلى عثمان بالبشارة والأخماس.

وهكذا تم فى عهد عثمان رضى اللَّه عنه نشر الإسلام فى ربوع الأرض ، وكان له من الفضائل والفخر ما جعل أعداء الإسلام يحاولون الكيد له بأى طريق ووسيلة.

وللشر بذوره التى ندعو اللَّه سبحانه أن يجتثها من جذورها فى كل مكان ، وتعود هذه الشرور فى زمن عثمان رضى اللَّه عنه ، فبعد ثلاث سنين من إمارة ابن عامر بالبصرة بلغه أن رجلًا نزل على حكيم بن جبلة العبدى ، وله آراء غير مقبولة ، فطلبه ابن عامر فسأله : من أنت؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغبت فى الإسلام ، وفى جوارك. فقال : ما يبلغنى ذلك ، اخرج عنى. فخرج حتى أتى الكوفة فأُخرج منها ، فأتى الحجاز والشام فأُخرج منهما ، فأتى مصر فعشش فيها ، ثم باض وفرخ ، وكان هذا الرجل هو عبد اللَّه بن سبأ ، أو ابن السوداء ، وهى أمه ، كان يهوديًّا ثم أظهر إسلامه مع ضمير خبيث ، وكانت له آراء فاسدة؛ منها : أنه كان يقول : عجبت ممن يصدق برجوع المسيح ولا يصدق برجوع محمد ، وكان هذا ابتداء القول بالرجعة ، وكان يقول : إن عليًّا وَصِيُّ مُحَمَّدٍ ، وقد غَصَبَهُ مَنْ وَلِيَ قَبْلَهُ حَقَّهُ[1] ، فالواجب على المسلمين أن يقوموا لإعادة الحق إلى أهله. وقد تبع مذهبه كثير ممن طاشت أحلامهم.

وقد ظهر فى هذه الآونة المتأخرة أناس لم يقدروا الصحابة حق قدرهم ، ولم يعلموا أن مراد عدوهم التنقيص من قدر هؤلاء الأفاضل؛ لأنهم سُلَّمُ الدِّينِ الذى

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ١٨٣)، و«مقالات الإسلاميين» للأشعرى.

وصل على أكتافهم ودمائهم وأشلائهم ، وبمساندة هؤلاء للنبى ﷺ كانت دولة الإسلام ، ووصل القرآنُ بفضل اللَّه تعالى ثم على أيدى هؤلاء وصلنا الاسلام غضًّا طريًّا ، وإلا باللَّه عليك ما معنى أن يأتى شخص يطعن فى عثمان بن عفان مثلًا إلى درجة أن يوصله أنه لا يساوى شيئًا ؟ ويأتى رجل آخر يقرأ صحيح البخارى ، فيجد حديثًا من أحاديثه : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » . فيقول : رواه عثمان وهو عندى غير جيد ، فيطعن فى النصوص ، فيطعن فى الدين ، فلا يبقى لنا شىء .

فلتنظر يا عبد اللَّه كيف يفكر عدوك ، وقد سمعت بأذنى هاتين من رجل يقال عنه عالم من علماء الشيعة وباحث عندهم ، يتهم الصحابة بالزنا والفاحشة والكفر ، وله عشرة مباحث فى هذا الضلال ، وهو يُنعت بالعلم[١] ، فأى علم هذا ؟!

وقد ظهر فى عهد عثمان رضى اللَّه عنه من غذى التعدى على مكانة الصحابة ، فبدأت تظهر انتفاضات كثيرة على أصحاب النبى ﷺ ، وبخاصة عثمان رضى اللَّه عنه ، ومن يوليهم تحت يديه ، وكان لابد من طرق هذا الموضوع ، أولًا : لأنه دفاع عن الدِّين أساسًا ، فحفظ مكانة هؤلاء حفظ للدين ، وثانيًا : أن الذى زكاهم القرآن والسنة ، فلو طعنًا فيهم فهذا طعن على القرآن والسنة شئنا أم أبينا .

فدرءًا لهذه الشبهة التى يتعلق بها من لا يفرق بين الغث والسمين ، والضعيف والصحيح ، وطالما سمعت عنده الكلمة فهى صحيحة ، أو قُرأت فى كتاب فهى أصح ، وهذه ليست قاعدة للصحة عند أهل العلم .

قال ابن العربى : «وقد كان النبى ﷺ أخبر بأن عمر شهيد ، وبأن عثمان شهيد ، وبأن له الجنة على بلوى تصيبه ، وهو زوج رقية ابنة رسول اللَّه ﷺ ، وهو أول مهاجرًا بعد إبراهيم الخليل ﷺ»[٢] . وهذا ورد فى أحاديث صحيحة لا مطعن فيها[٣] .

---

(١) مناظرات مع علماء الشيعة وردود أهل السنة عليهم وعلى باطلهم (قناة المستقلة - مناظرات الشيعة) .

(٢) «العواصم من القواصم» لابن العربى (ص ٧١ ، ٧٢) .

(٣) البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه ، وغيرهم كثير .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «منهاج السنة» : «إن الصحابة اجتمعوا على عثمان رضى اللَّه عنه لأن ولايته كانت أعظم مصلحة ، وأقل مفسدة من ولاية غيره» .

ثم قال فى الصحيفة التالية : «ولا ريب أن الستة الذين توفى رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض - أى : الذين عينهم عمر - ، لا يوجد أفضل منهم ، وإن كان فى كل منهم ما كرهه ، فإن غيرهم يكون فيه من المكروه أعظم ، ولهذا لم يتول بعد عثمان خير منه ، ولا أحسن سيرة»[(١)] .

وقد كان بداية خروج هؤلاء كما قال ابن العربى : «وقد سَمُّوا من قام عليه ، فوجدناهم أهل أغراض سوء ، حيل بينهم وبينها ، فوُعظوا وزُجروا وأقاموا بحمص عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد يؤنبهم ويؤبدهم ، حتى تابوا ، فأرسل بهم إلى عثمان فتابوا ، وخيرهم فاختاروا التفرق فى البلاد ، فأرسلهم ، فلما سار كل إلى ما اختار أنشأوا الفتنة وألبوا الجماعة وجاءوا إليه بجملتهم[(٢)] ، من مصر والكوفة والبصرة وغيرها .

وزعم البغاة أنهم تلقوا من على وطلحة والزبير رسائل يدعونهم بها للثورة على عثمان بدعوى أنه غيَّر سنة اللَّه ، وقد أنكر الصحابة هذا الكلام ، وكان منظمى الفتنة من السبأيين زوروا الرسائل التى ذكرها البغاة الثائرون[(٣)] .

ولا ينبغى أن يمر الخبر دون بحث وتمحيص ، فلقد اندس فى هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض ، وزوروا أخبارًا على لسان آخرين ، وروجوها فى الكتب إما تقربًا لبعض أهل الدنيا ، أو تعصبًا لنزعة يحسبونها من الدين .

ومن مزايا التاريخ الإسلامى - تبعًا لما جرى عليه علماء الحديث - أنه قد تخصص فريق من العلماء فى نقد الرواية والرواة ، وتمييز الصادقين منهم من

---

(١) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٣/ ١٦٤ ، ١٦٥).

(٢) «العواصم من القواصم» (ص٧٣ ، ٧٤).

(٣) «العواصم من القواصم» وتعليقات الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله.

الكذبة ، حتى صار ذلك علمًا محترمًا له قواعد[١].

وقد جرهم الحقد والدس ، أى : الذين خرجوا على عثمان - رضى اللَّه عنه - كما نقل ابن العربى - رحمه اللَّه - بثمان عشر دسيسة ، وهى تناقش من باب رد الباطل على صاحبه لا رفعًا لشأنه ، بل الباطل خسيس مع أى أحد ، ليس له أرجل يمشى عليها ، بل يحمله ضعاف العلم والنفوس ، أما أهل العلم ورواده هم أهل العدل الذابون عن الحق ، والمدافعون عنه.

فَالنَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمثالِ أكفاءُ ... أَبُـوهُـمْ آدَمُ والْأُمُّ حَـوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

فأولها قالوا : ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه ، وثانيها : ضربه لابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه ، وهذا أولًا من ناحية الحديث والسند باطل سندًا ومتنًا كما يقول ابن العربى[٢].

لقد عزل عثمان سعدًا ، وأبقى ابن مسعود على الكوفة ، وكان ابن مسعود يود أن كتابة المصحف نيطت به ،وكان يود أيضًا لو يبقى مصحفه الذى كان يكتبه لنفسه فيما مضى ، فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يوده ابن مسعود فى الحالتين.

وأما اختيار عثمان لزيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأن أبا بكر وعُمَرَ اختاراه قبل ذلك. وزيد هو الذى حفظ العرضة الأخيرة لكتاب اللَّه تعالى على رسول اللَّه ﷺ قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق فى هذا ، وهو يعلم كما يعلم سائر الصحابة مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه.

ثم كان على حق أيضًا فى غسل المصاحف على أكمل ما كان فى استطاعة

---

(١) «العواصم من القواصم» وتعليقات الشيخ محب الدين الخطيب (ص٧٥).

(٢) «العواصم» (ص ٧٦ ، ٧٧).

البشر هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة ، وكان جمهور الصحابة مع عثمان على ابن مسعود.

وعلى كل حال فإن عثمان رضى اللَّه عنه لم يضرب ابن مسعود ، ولم يمنعه عطاءه ، وبقى يعرف له قدره كما بقى ابن مسعود على طاعته لإمامه الذى بايع له ، وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة[١].

وأما موقفه مع عمار فلم يثبت ما حدث مع عمار ، وعلى فرض ثبوته فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وعثمان أفضل من كل من تكلم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود وعمار وأبى ذر . . . » ، ثم قال : «ومن غيرهم من وجوه كثيرة كما ثبت بالدلائل ، فليس جعل كلام المفضول قادحًا فى الفاضل بأولى من العكس»[٢].

قال ابن العربى : « وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغى أن تشتغل بها لأنها مبنية على باطل - يشير لبطلان الأخبار فى ذلك - ولا يُبنى حق على باطل ، ولا تذهب الزمان فى مماشاة الجهال ، فإن ذلك لا آخر له »[٣]. ولكن :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِى الْمَسَاوِيَا

ونعم ما قال القائل :

وَمَنِ الَّذِى تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى الْمَرْءُ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

وثالثها : عَدُّوها سيئة وهى من أحسن الحسنات ، وهى جمع القرآن ، وهذا لما كثر القتل فى القراء فى المعارك ، وهذه فعلها أبو بكر وعمر ، وجمع عثمان الكلمة على مصحف واحد ، ولعلها صدمة للذين يروِّجون للطعن فى المصحف أصلًا من الشيعة عندما يقال لهم : إن عليَّ بنَ موسى المعروف بابن طاوس (٥٨٩ - ٦٦٤) وهو من علمائهم أنه نقل فى كتابه « سعد السعود » عن الشهرستانى فى

---

(١) «العواصم»، و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٣/ ١٩١، ١٩٢)، وتعليقات الشيخ محب (ص٧٧، ٧٨).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) «العواصم» (ص ٧٩).

مقدمة تفسيره ، عن سويد بن علقمة قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : أيها الناس ! اللَّه اللَّه ، إياكم والغلو فى أمر عثمان ، وقولكم : حراق المصاحف ، فواللَّه ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، جمعنا وقال : ما تقولون فى هذه القراءة التى اختلف الناس فيها ؟ يلقى الرجل الرجل فيقول : قراءتى خير من قرائتك ، وهذا يجر إلى الكفر . فقلنا : ما الرأى ؟ قال : أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد ، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافًا . فقلنا : نعم ما رأيت[١].

ورابعها : أنه زاد فى الحمى (مكان للإبل والخيل والدواب الراعية من مال الصدقة وغيره) ، وقد نهى النبى ﷺ فقال : « لا حِمَى إِلَّا للَّهِ ولرَسولِهِ » . وهذا له سبب ، فقد كان الشريف فى الجاهلية إذا نزل أرضًا من حيه استعوى كلبًا ، فحمى لخيله وإبله وسوائمه مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، وقد فعله أبوبكر وعمر وزاده عثمان لكثرة الأموال ، وقد أجاب عن نفسه فقال : كنتُ قبل الخلافة أكثر العرب بعيرًا وشاءً ثم أمسيت وليس لى غير بعيرين لحجة . وسأل مَنْ يعرف ذلك من الصحابة : أكذلك ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ[٢].

وخامسها : نفيه أبا ذر للربذة ، فلم يفعله عثمان ، بل الذى طلب أن يعتزل فى الربذة هو أبو ذر نفسه ، فوافقه عثمان رضى اللَّه عنه وأكرمه ، وجهزه بما فيه راحته[٣].

وقد رأى أبو ذر : أن كل غِنَى يمسك قوته وقوت عياله ثم يُخرج الباقى ، وهذا خلاف جماهير الصحابة رضى اللَّه عنهم.

قال ابن العربى : « فحدث بين أبى ذر ومعاوية كلام فى الشام ، فخرج إلى المدينة ، فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق ، فقال له عثمان : لو

---

(١) «العواصم» تعليقات الشيخ محب.

(٢) «تاريخ القرآن» لأبى على النتجانى (ص ٤٦)، «العواصم» (ص٨٢).

(٣) تعليقات للشيخ محب على العواصم (ص ٨٥).

اعتزلت . معناه : أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطًا ، وللعزلة شروط مثلها»[١] .

ولا حرج أن يكون الإنسان غنيًّا ، ولكن كن كسليمان ولا تكن كقارون ، وأعط كل ذى حق حقه ، ولا نريد أن نحمل هذا الصحابى ما لا يتحمله أنه زعيم الاشتراكية كما قال البعض ، وإنما هو رأى اجتهد فيه ، وكلمه فيه من هو أفضل منه كما أشار النبى ﷺ لفضله ، وهو عثمان رضى اللَّه عنه ، وكما أشار شيخ الإسلام مسبقًا .

بل قال أبو ذر نفسه : واللَّه ما سير عثمان أبا ذر ، ولكن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا بَلَغ البناءُ سلعًا - مكان - خرَجَ أبو ذرٍ إلى الشَّامِ » . والحديث قد صححه البعض كالحاكم ، ووافقه الذهبى .

وسادسها : أنه كان بين أبى الدرداء ومعاوية كلام ، ونفيه لأبى الدرداء - أى : عثمان - ، فهذا باطل ، بل معاوية نفسه حاول السير على هدى عمر فترة ، فعن الزهرى : « أنَّ معاوية عمل سنتين عمل عمر ، ما يخرم فيه » . ثم إنه بعد عن ذلك ، ولكل ظروفه وبيئته[٢] .

وسابعها : رده للحكم بعد هجر النبى ﷺ له ، وقالوا : ذهب باختياره ، وإن كان النبى ﷺ قد عزر رجلًا بالنفى ، لم يلزم أن يبقى منفيًّا طول الزمان ، فإن هذا لا يُعرف من شىء فى الذنوب ، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيًّا دائمًا »[٣] .

وثامنها : تركه القصر فى الصلاة ، فهذا اجتهاد منه ، إذا سمع أن الناس افتتنوا بالقصر (الأعراب ظنوا هذا تغييرًا لأصل الصلاة فى الحج) ، وفعلوا ذلك فى منازلهم ، فرأى أن السنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة ، فتركها مصلحة خوف الذريعة[٤] .

---

(١) «العواصم» (ص٨٦).

(٢) «العواصم» (ص٨٨).

(٣) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٣/ ١٩٦).

(٤) «العواصم» (ص٩٠).

وتاسعها : ولى معاوية ، وعبد اللَّه بن عامر ، ومروان ، وولى الوليد بن عقبة ،وهو فاسق ليس من أهل الولاية.

فأما معاوية فولاه أبوبكر قبله ، وأقره عمر لتعلقه بولاية أبى بكر ، لأجل استخلاف واليه له ، فتعلقه عثمان وأقره[1].

بل ينبغى التأدب مع أصحاب النبى ﷺ كلهم ، ولنعم ما نقله محب الدين عندما أجاب عن معاوية فقال : «ومن أنا حتى أُسأل عن عظيم من عظماء هذه الأمة ، وصاحب من خيرة أصحاب محمد ﷺ ؟! إنه مصباح من مصابيح الإسلام ، ولكنه سطع إلى جانب أربع شموس ملأت الدنيا بأنوارها ، فغلبت أنوارها على نوره »[2].

وأما تولية عبد اللَّه بن كريز : فإن أم أبيه أورى بنت كريز ، أمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى ﷺ ، وقد نشأ نشأة مستقيمة[3].

وأما تولية الوليد بن عقبة : فقد ولاه أبوبكر ، وكان موضع ثقته ، وولاه عمر ، وأما سبب تسميته بالفسق أن الآية : ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات : ٦]. نزلت فيه فضعيف موقوف.

قال محقق «تفسير زاد المسير» لابن الجوزى : «فى سنده موسى بن عبيدة وهو ضعيف ، وضعفه ابن حجر فى تخريج الكشاف».

وقد شهد على الوليد زورًا عدوَّان لدودان له كانا فى رعيته ، قد سبق له معهم مواقف كثيرة ، أضمرا بعدها السوء له ، ولذا قال عثمان عندما حده : «نقيم الحدود ، ويبوء شاهد الزور بالنار».

وعند الطبرى : « أن الذى شهد على الوليد اثنان من الموتورين (صاحب ثأر قديم) الذين تعددت شواهد غلهم عليه ، ولم يرد فى الشهادة ذكر الصلاة من أصلها فضلًا عن أن تكون اثنين أو أربعة ، بل الشاهدان لم يذكرا الصلاة ، وإنما ذكرها

---

(١) «العواصم» (ص٩٥)

(٢) «العواصم» (ص٩٥، ٩٦).

(٣) «العواصم» (ص٩٧).

حصين ولم يكن حضر الواقعة ، فلم يكن فى الكوفة وقت الحادث المزعوم »[١] .

وكانت التولية فيها من الشبهة التاسعة إلى الثانية عشر ثم الثالثة عشر : أنه أعطى مروان خمس إفريقية ، فهذا أيضًا لم يصح ، والذى أعطاه هو عبد اللّه بن سعد بن أبى السرح ، ثم استرده منه ، وكان أعطاه لجهاده المشكور.

قال الطبرى : « لما أمر عبد اللّه بالزحف من مصر على تونس : إن فتح اللّه عليك غدًا إفريقية فلك مما أفاء اللّه على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلًا ، فلما فتح اللّه عليه اعترض البعض فقال لهم عثمان : أنا أمرت له بذلك ، فإن سخطتم فهو رد. قالوا : إنا نسخطه. فأمر عثمان عبد اللّه برده فرده »[٢] .

ورابع عشر : أنه ضرب بالعصا ، فهذا باطل لم يصح.

وخامس عشر : علوه على درجة رسول اللّه ﷺ فى المنبر ، فإنما هى إشاعة منكرة ، ليروى ويُذكر فيتغير من يتغير ، قال علماؤنا : فلو صح ذلك فما فى هذا ما يُحل دمه ، ولا يخلو أن يكون ذلك حقًّا ، فلم تنكره الصحابة عليه إذ رأت جوازه ابتداءً ، أو لسبب اقتضى ذلك ، مثل اتساع المسجد فى عهده ، وهو الذى وسعه[٣] .

والسادسة عشر : مرت فى السابق[٤] . أما السابعة عشر : لم يقتل عبيد اللّه بالهرمزان ، فذلك باطل ، والصحابة متوافرون ، وقد قيل : إن الهرمزان سعى فى قتل عمر ، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه ، بل ورد فى الطبرى عن عبد الرحمن ابن أبى بكر قال : « غداة طعن عمر مررت على أبى لؤلؤة عشى أمس ومعه جفينة - نصرانى - والهرمزان ، وهم نجى - يتحدثون سرًّا - ، فلما رهقتهم ثاروا ، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه. . . »[٥] . وكان هو الخنجر الذى ضرب به

---

(١) «العواصم» بتصرف من تعليقات محب الدين رحمه الله.

(٢) الطبرى (٥/ ٤٩).

(٣) «العواصم» (ص١١٣).

(٤) وهى أنه فر يوم أُحد ولم يحضر بيعة الرضوان ولم يحضر بدرًا، وقد وردت إجابتها فى النصوص وفضائله رحمه الله.

(٥) الطبرى (٥/ ٤٢).

عمر رضى اللَّه عنه.

والأخيرة : الكتاب الذى ورد فيه الأمر بقتل الثوار ، فلقد تبرأ منه علىٌّ ، وكيف يسترضيهم ثم يفعل معهم هذا ؟ وقد قال لهم عثمان : إما أن تقيموا شاهدين على بذلك ، وإلا فيمينى أنى ما كتبت ولا أمرت ، وقد يُكتب على لسان الرجل ، ويُضرب على خطه ، ويُنقش على خاتمه(١). فقالوا : تسلم لنا مروان. فقال : لا أفعل . ولو سلمه كان ظالمًا ، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان وسواه ، فما ثبت كان هو منفذه وآخذه ، والممكن لمن يأخذه بالحق ، ومع سابقته وفضيلته لم يثبت عليه ما يوجب خلعه فضلًا عن قتله ، وهى تألب عليه قومًا لأحقاد اعتقدوها(٢).

وكان الغافقى المصرى أمير القوم ، وكنانة بن بشر التجيبى ، وسودان بن حمران ، وعبد اللَّه بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وحكيم بن جبلة من أهل البصرة ، ومالك بن الحارث الأشتر . . .

وهم لما رجعوا بالشبه الماضية أجابهم عثمان عنها كلها ، وتراضوا فيما بينهم ، ثم رجعوا راضين ، فبينما هم كذلك إذا راكب يتعرض لهم ، ثم يفارقهم مرارًا ، قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر . ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان إلى عامل مصر أن يصلبهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم.

وقد تبرأ علىٌّ - رضى اللَّه عنه - من الكتابة ، وطلب عثمان البينة ، فلم يقبلوا ذلك منه ونقضوا عهده ، وحصروه وأرادوا قتله ، أو يتنازل عن الأمر كله ، فرفض.

قال عبد اللَّه بن عامر : «كنت مع عثمان فى الدار ، فقال : أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كفَّ يدَه وسِلاحَه . ثم قال : قم يا بن عمر - وعَلَى ابن عمر سيفه متقلدًا - فأخبر بها الناس. فخرج ابن عمر» .

---

(١) «العواصم» (ص ١٢٠).

(٢) «العواصم» (ص ١٢١)، وأنت تراها كلها إما أشياء باطلة لا دليل عليها، وإما أشياء فهمت خطأ فهو برىء فى الحالتين ، ولكنها حالة صاحب السوء يرى بعين واحدة.

وهذه اللحظات الأخيرة فى حياة عثمان وهو يتلو القرآن[(١)] : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران : ١٧٣] . فكان أول من دخل عليه رجل يقال له : الموت الأسود ، فخنقه خنقًا شديدًا حتى غُشى عليه ، وجعلت نفسه تتردد فى حلقه ، فتركه وهو يظن أنه قد قتله ، ودخل ابن أبى بكر فأَمْسَكَ لحيته ، ثم ند وخرج ، ثم دخل عليه آخر ومعه سيف ، فضربه به ، فاتقاه بيده فقطعها ، فقيل : إنه أبانها . وقيل : بل قطعها ولم يبنها ، إلا أن عثمان قال : واللَّه إنها أول يد كتبت المفصل - من القرآن- . فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٣٧] . ثم جاء شاهرًا سيفه ، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه ، وأخذت السيف ، فانتزعه منها ، فقطع أصابعها ، ثم إنه تقدم إليه ، فوضع السيف فى بطنه ، فتحامل عليه .

وفى رواية أن الغافقى بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبى بكر ، فضربه بحديدة فى فيه ، ورفس المصحف الذى بين يديه ، فاستدار المصحف ثم استقر بين يدى عثمان رضى اللَّه عنه ، وسالت عليه الدماء ، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف ، فمانعته نائلة ، فقطع أصابعها ، فولت فضرب عجيزتها بيده ، وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمان فقتله ، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله ، فضرب الغلام رجل يقال له قترة فقتله .

ثم مال الفجرة على ما فى بيت المال فنهبوه ، وجعلوا لا يمرون على شىء إلا استلبوه ، حتى استلب رجل يقال له : كلثوم التجيبى ملاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فقتله ، وقُتِل الغلام أيضًا[(٢)] .

وهؤلاء ظهر من صنيعهم أنهم لم يقصدوا أمرًا بالمعروف ، ولا نهيًا عن منكر ، بل صنيعهم من رفس المصحف ، وآخر فاجر ، وثالث أو كلهم لصوص ، فما قول من تكلم فى عثمان رضى اللَّه عنه ، بل من لآلئ عثمان رضى اللَّه عنه .

---

(١) فَإِمَّا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ وَإِمَّا مَمَاتٌ يَكِيدُ الْعِدَا

(٢) «البداية والنهاية» بتصرف (ج٧/ ص ١٥٢، ١٥٣).

قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا يريدون قتله : «إن تقتلوه أو تتركوه ، فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن». وهذا ثبت صحيحًا عنه رحمه اللَّه.

ولم يستطع أصحاب النبى ﷺ الذين بقوا خارج الدار الدفاع ، فلقد أخذ عليهم أولًا العهد بعدم القتال ، والثوار كانوا يزيدون على الألف ، ورفض عثمان رضى اللَّه عنه بعث معاوية بمن يحميه ، فهذا الأمر لم يكن عن يد من الصحابة ،وحاشاهم ، بل هذا أمر مدبر من هؤلاء الأقذار وغيرهم الذين قتلوه ، وعليهم من اللَّه ما يستحقون.

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عنوان السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وقُرْآنَا

ألم يذكروا رفقه ونفقته ، وحفره لبئر رومة ، وجهاده ، وتبشيره بالجنة ؟! ولكنه الهوى والتعصب قاتلهم اللَّه ، فاحذر يا عبد اللَّه هذا الداء اللعين.

خَالِفْ هَوَاكَ إِذَا دَعَاكَ لِرِيبَةٍ ... فَلَرُبَّ خَيْرٍ فِى مُخَالَفَةِ الْهَوَى

حَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِى يَا صَاحِبِى ... حَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى ؟

وقال الشاعر :

أَشَدُّ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَى ... وَمَا كَرَمُ الْمَرْءِ إِلَّا التُّقَى

أَخْلاقُ ذِى الْفَضْلِ مَعْرُوفَةٌ ... بِبَذْلِ الْجَمِيلِ وَكَفِّ الْأَذَى

وقال آخر :

إِذَا اعْتَادَتِ النَّفْسُ الرِّضَاعَ مِنَ الْهَوَى ... فَإِنَّ فِطَامَ النَّفْسِ عَنْهُ شَدِيدُ

وتذكر قول النبى ﷺ : «وَعُثْمَانُ فِى الْجَنَّةِ» . فاحذر مكانة الصحابة ، فما وراءها أشد وأعظم ، ولا يستهوينك الشيطان ولا أتباعه .

* * *

[٤] الإمام عليٌّ بنُ أبى طالبٍ رضى اللَّه عنه

إننا على موعد مع رجل من نوع خاص ، كثر محبوه ، وكثر مبغضوه ، فضلت فيه فرقتان ، فرقة الشيعة غالت فيه فوق مكانته ومنزلته ، وعلى العكس تمامًا آخرون سبوه وانتقصوا منزلته ، والحق مع أهل الوسط فيه.

نعم هو من خيار الصحابة ، ومن أوائل من طرق الإسلام أذنه ، وغزا قلبه ، برغم صغر سنه ، هو صهر النبى ﷺ فى ابنته فاطمة رضى اللَّه عنها ، ووالد الحسن والحسين رضى اللَّه عنهما ، هو صاحب الخلق الجم ، والتواضع ، والقرب.

يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعُلَا مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ
زَانَتْكَ فِى الْخُلُقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ يُغْرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرَمَاءُ

هو عبد اللَّه من عباد اللَّه ، ليس بإله كما يدعى البعض ، وليس بنبى كما يدعى آخرون ،ولم يخطئ جبريل عليه السلام حينما نزل بالرسالة على النبى محمد ﷺ كما يقال ، بل هو رضى اللَّه عنه من العشرة المبشرين بالجنة ، وهذا أفضل أن نتحدث بفضائله الصحيحة ، لا أن ندخله السراديب هو وأبنائه ، ونلطم الخدود ، وتسيل الدماء من الرءوس ، بحجة الخطأ فى حقه وذريته.

فالعبرة ، أنزلوا الناس منازلهم ، لا نرفع أحدًا للألوهية ، ولا لمرتبة النبوة ، ولا ندعى العصمة إلا للنبى محمد ﷺ ، والمعصوم من عصمه اللَّه ، وطالما وجب التنبيه على هذا ، ومن هذه الشخصية التى أحيطت بكل هذا ؟ إنه صحابى مشهور ، إنه علىُّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه ، ولا ينبغى أن يظلم فيُنعت بما ليس له ، ولا نحذف ما هو له ، فهذا ظلم له ، بل نذكر الحق ، ولا يعنينا سوى الحق ، أما الظلم فندعو اللَّه أن يجنبنا إياه ، فمرتعه وخيم ، وصاحبه له العقاب الأليم.

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ شَرٌّ وَالْعُقْبَى إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمِ

لقد أسلم علىُّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه وهو صغير. قال ابن إسحاق : ثم إن علىَّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه جاء بعد ذلك بيوم وهما يصليان ، فقال على :

يا محمد ما هذا ؟ قال : « دين اللَّه الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى » . فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاضٍ أمرًا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول اللَّه ﷺ أن يفشى سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : « يا على إذا لم تسلم فاكتم » . فمكث علىّ تلك الليلة ، ثم إن اللَّه أوقع فى قلب علىّ الإسلام ، فأصبح غاديًا إلى رسول اللَّه ﷺ حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علىّ يا محمد ؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ : «أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد » . ففعل علىّ ، وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم علىٌّ إسلامَه ولم يُظْهِرْهُ ، وأسلم ابن حارثة - يعنى زيدًا - فمكث قريبًا من شهر يختلف علىّ إلى رسول اللَّه ﷺ ، وكان مما أنعم اللَّه به على علىّ أنه كان فى حجر رسول اللَّه ﷺ قبل الإسلام[١] .

فعن مجاهد قال : وكان مما أنعم اللَّه به على علىّ أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ، فقال رسول اللَّه ﷺ لعمه العباس ، وكان من أيسر بنى هاشم : « يَا عَبَّاسُ ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه حتى نخفف عنه من عياله » . فأخذ رسول اللَّه ﷺ عليًّا فضمه إليه ، فلم يزل مع رسول اللَّه ﷺ حتى بعثه اللَّه نبيًّا فاتبعه علىٌّ وآمن به[٢] .

وعند ابن جرير عن عفيف قال : جئت زمن الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ، ثم استقبل الكعبة ، فقام مستقبلها ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب ، فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب ، فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدًا ، فسجدا معه ، فقلت : يا عباس أمر عظيم . فقال :

(١) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص٢١، ٢٢).

(٢) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص٢٢).

أمر عظيم . فقال : أتدرى من الغلام ؟ قلت : لا . قال : هذا على بن أبى طالب ، أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا . قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى ، وهذا حدثنى أن ربك رب السماء والأرض أمره بهذا الذى تراهم عليه ، وايم اللَّه ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدًا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[1]. وكان ابن عشر سنين يومها .

شهِدتُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ وَأُخْلِصُ

لقد تحركت فطرته رضى اللَّه مبكرًا فى صباه؛ لقبول الحق والتأهب للآخرة.

ولقد مرت عليه أحداث الدعوة من بدايتها ، من سريتها لمرحلة العلانية ، ثم الإيذاء بالكلام ، والإيذاء البدنى ، والحبس فى شِعب أبى طالب ، وما جرى للرسول اللَّه ﷺ من أحداث فى المجتمع لكى ، وعلىّ مع النبى ﷺ فهو طريقه منذ الصغر ، ألا يكون مع الكبر ومع الشباب ، ومع مراحل حياته كلِّها ؟ إنها حياة الأبرار حينما يصبح تفكيرهم الآخرة ، وتستحوذ على همومهم فتجعلهم لا يتحركون إلا لها؛ لينالوا مرضاة ربه سبحانه وتعالى.

يَا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا يُمْسِى وَيُصْبِحُ فِى دُنْيَاهُ سَفَّارَا
هَلَّا تَرَكْتَ لِذِى الدُّنْيَا مُعَانَقَةً حَتَّى تُعَانِقَ فِى الْفِرْدَوْسِ أَبْكَارَا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِى جِنَانَ الْخُلْدِ تَسْكُنُهَا فَيَنْبَغِى لَكَ أَلَّا تَأْمَنَ النَّارَا

ثم يشتد الإيذاء بالمسلمين حتى يقرر النبى ﷺ الهجرة للمدينة ، ويكون فى هذا الموقف رفعة وعلوٌّ لعلى بن أبى طالب رضى اللَّه عنه ، فعن محمد بن كعب القرظى قال : لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل قال - وهم على بابه - : إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون بها ، قال : فخرج رسول اللَّه ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : «نعم أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم» وأخذ اللَّه

(١) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص٢٢).

على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [يس : ١-٤] إلى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ [يس : ٩] . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمدًا . فقال : خيبكم اللَّه ، قد واللَّه خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ، أما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًّا على الفراش متسجيًا ببرد رسول اللَّه ﷺ ، فيقولون : واللَّه إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىّ عن الفراش ، فقالوا : واللَّه لقد كان صدقنا الذى كان حدثنا[1] .

إنه يفادى النبى ﷺ بنفسه ، فهذه النفوس المتحفزة والقلوب المليئة بالبغض والضغينة كان من الممكن أن تنقض فتقتل من تحت الفراش ، ظنًّا منها أنه النبى محمد ﷺ ، وعلىٌّ يعلم ذلك تمام العلم ،ولكنهم كانوا يقولون بلسان الحال والمقال : بأبى أنت وأمى يا رسول اللَّه . . وهو التفانى فى خدمة الدين ، وعدم الخوف طالما أن الأمر فى سبيل اللَّه ، فهذه هى أسمى أمنية فى حياة هذا الصحابى الجليل ، ووراء هذه المحن فُرجات ، ولطف تعلموه من كتاب ربهم ، وعلمهم إياه نبيهم .

ادْفَعْ بِصَبْرِكَ حَادِثَ الأَيَّامِ ... وَتَرَجَّ لُطْفَ الْوَاحِدِ الْعَلَّامِ
لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ تَضَايَقَ كَرْبُهَا ... وَرَمَاكَ رَيْبُ صُرُوفِها بِسِهَامِ
وَلَهُ تَعَالَى بَيْنَ ذلِكَ فُرْجَةٌ ... تَخْفَى عَنِ الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ
كَمْ مَنْ نَجَا مِنْ بَيْنِ أَطْرَافِ الْقَنَا ... وَفَرِيسَةٌ سَلِمَتْ مِنَ الضِّرْغَامِ

وقد كان بينه وبين النبى ﷺ كما يكون بين الأخ وأخيه ، فعن عبد العزيز بن أبى

(١) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص١٤٤).

حازم ، عن أبيه : أن رجلًا جاء إلى سهل بن سعد قال : هذا فلان لأمير المدينة ، يدعو عليًا عند المنبر ، قال فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، وقال : واللَّه ما سماه إلا النبى ﷺ ، وما كان له اسم أحب إليه منه ، فاستطعمت الحديث سهلًا ، وقلت : يا أبا عباس كيف قال : قال : دخل علىّ على فاطمة ، ثم خرج ، فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى ﷺ : «أينَ ابنُ عَمِّكِ ؟» قالت : فى المسجد . فخرج إليه ، فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره ، فيقول : « اجْلِسْ يَا أَبَا تُرَابٍ » . مرتين ؟[1] .

ومكانته رضى اللَّه عنه معروفة ، ولا ينكرها إلا كل صاحب قلب مريض ، فعن سعد بن عبيدة قال : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر من محاسن عمله ، قال : لعل ذاك يَسُوءك ؟ قال : نعم . قال : فأرغم اللَّه بأنفك . ثم سأله عن علىّ ، فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذلك بيته أوسط بيوت النبى ﷺ ، ثم قال : لعل ذلك يَسُوءك . قال : أجل . قال : فأرغم اللَّه بأنفك ، انطلق فاجهد على جهدك - أى : افعل ما تقدر عليه -[2] .

ومن جاور محمدًا ﷺ فقد جاور الذاكر لربه ، المخبت ، ولابد أن يحذيك أو يهديك ، أو تجد منه ريحًا طيبة ، فعن ابن أبى ليلى قال : حدثنا علىٌّ أن فاطمة رضى اللَّه عنها شكت ما تلقى من أثر الرحى ، فأتى النبى ﷺ سبى ، فانطلقت فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها ، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة ، فجاء النبى ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم ، فقال : « على مكانكما » . فقعد بيننا حتى وجدتُ بَرْدَ قدميه على صدرى ، وقال : « أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَانِى ؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ ، وَتُسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ،وَتَحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ »[3] .

---

(١) البخارى (٣٧٠٣)، و« تاريخ الخلفاء » للسيوطى (١٦٦)، و« تاريخ الإسلام » للذهبى (٣/ ٧٦) ، وما بعدها ، والطبرى ، و« مروج الذهب » (١/ ٥٥٧) .

(٢) البخارى (٣٧٠٤).

(٣) البخارى (٣٧٠٥).

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَلَا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِحَوادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوالِ جَلْدًا وَشِيمَتُكَ السَّمَاحَةُ وَالْوَفَاءُ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَّأَنِّى وَلَيْسَ يَزِيدُ فِى الرِّزْقِ الْعَنَاءُ
وَلَا حُزْنٌ يَدُومُ وَلَا سُرُورٍ وَلَا بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلَا رَخَاءُ
إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ
وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ الْمَنَايَا فَلَا أَرْضٌ تَقِيهِ وَلَا سَمَاءُ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقَضَا ضَاقَ الْفَضَاءُ
دَعِ الْأَيَّامَ تَغْدِرُ كُلَّ حِينٍ فَمَا يُغْنِى عَنِ الْمَوْتِ الدَّوَاءُ

وفى غزوة بدر الكبرى كان عليُ رضى اللَّه عنه فارسها المقدام ، فعن على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه قال : أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن عز وجل فى الخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج : ١٩] قال : هم الذين تبارزوا يوم بدر علىّ وحمزة وعبيدة ، وشيبة ابن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[١].

قال ابن إسحاق : . . . فحمى عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم : عوف ومعاذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، والثالث عبد اللَّه بن رواحة فيما قيل ، فقالوا : من أنتم؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم حاجة . وفى رواية : أكفاء كرام ، ولكن أخرجوا إلينا من بنى عمنا . ونادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال النبى ﷺ : «قُمْ يَا عُبَيْدَةَ بنَ الْحَارِثِ ، وَقُمْ يَا حَمْزَةَ ، وَقُمْ يَا عَلِىّ» . وعند الأموى أن النفر من الأنصار لما خرجوا كره ذلك رسول اللَّه ﷺ ؛ لأنه أول موقف

---

(١) البخارى (٣٩٦٥).

واجه فيه رسول اللّه ﷺ أعداءه ، فأحب أن يكون أولئك من عشيرته ، فأمرهم بالرجوع ، وأمر أولئك الثلاثة بالخروج ، فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ وفى هذا دليل أنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، فقال عبيدة : عبيدة . وقال حمزة : حمزة . وقال علىّ : علىّ . قالوا : نعم أكفاء كرام . فبارز عبيدةُ عتبةَ - وكان أسن القوم عتبة - وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما عَلِىّ فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكَرَّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فذففا عليه ، واحتملا صاحبهما ، فحازاه إلى أصحابهما رضى اللّه عنهم[1].

وصدق من قال :

أَلَمْ تَرَ الْأُسْدَ تُخْشَى وَهْىَ صَامِتَةٌ وَالْكَلْبُ لَعَمْرُ اللَّهِ يَخْسَى وَهْوَ نَبَّاحُ

فكيف لو تكلم الأسد وهجم ، فمما لا شك فيه أنه سوف يصير قويًا جدًّا ، فكذلك أصحاب النبى ﷺ ، كانوا حلماء ، فإذا كانت المعارك تحولوا لأسود فى الميدان ، فرسان بالنهار ، رهبان بالليل.

وعن سهل بن سعد رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ » - أى فى فتح خيبر- . وفى رواية : كان علىّ قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر ، وكان به رضى اللّه عنه رَمَدٌ ، فقال : أنا أتخلف عن رسول اللّه ﷺ ، فخرج علىّ فلحق بالنبى ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها اللّه فى صباحها قال : « لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ - أَوْ لَيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ - غدًا رَجُل يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » . أو قال : «يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفْتِحُ اللَّهُ عَلَيْهِ » . قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللّه ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : « أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِى طالِبٍ ؟ » فقالوا : يشتكي عينيه يا رسول اللّه . قال : « فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِى بِهِ » . فلما جاء بصق فى عينيه ، ودعا له فَبَرِأَ حتَّى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علىّ : يا رسول اللّه ،

(١) «البداية والنهاية» (ج٣/ ص٢٢١).

أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه فيه ، فواللَّه لأن يهدى اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أين يكون لك حُمْرُ النَّعَم »[١].

ثم أعطاه الراية ، فنهض بها وعليه جبة أرجوان حمراء قد أخرج خملها ، فأتى مدينة خيبر ، وخرج مرحب صاحب الحصن ، وعليه مغفر يمانى وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يرتجز ويقول :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبْ   شَاكِ السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبْ
وَإِذَا اللُّيُوثُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبْ   وَأَحْجَمَتْ عَنْ صَوْلَةِ الْمُغَلَّبْ

فقال على رضى اللَّه عنه :

أَنَا الَّذِى سَمَّتْنِى أُمِّى حَيْدَرَهْ   كَلَيْثِ غَابَاتٍ شَدِيدِ الْقَسْوَرَهْ
أَكِيلُكُمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال : فاختلفا ضربتين ، فَبَدَرَهُ عَلِيٌّ بِضَرْبَةٍ فَقَدَّ الْحَجَرَ والمِغْفَرَ ورَأْسَهُ ، ووقع فى الأضراس ، وأخذ المدينة[٢].

وها هو النبى ﷺ يحدد مكانة علىّ رضى اللَّه عنه ، فعن عمرو بن شاس الأسلمى ، وكان من أصحاب الحديبية ، قال : كنتُ مع علىّ بن أبى طالب فى خيله التى بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن ، فجفانى علىٌّ بعض الجفاء فوَجَدْتُ فى نفسى عليه ، فلما قدمت المدينة اشتكيته فى مجالس المدينة ،وعند من لقيته فأقبلت يومًا ورسول اللَّه ﷺ جالس فى المسجد ، فلما رآنى أنظر إلى عينيه نظر إلىّ حتى جلست إليه ، فلما جلست إليه قال : « إِنَّهُ واللَّهِ يا عَمْرُو بنَ شَاسٍ ، لَقَدْ آذَيْتَنِى » . فقلتُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ أَنْ أُوذِى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : « مَنْ آذَى عَلِيًّا فَقَدْ آذانِى »[٣].

---

(١) البخارى (٣٧٠١، ٣٧٠٢).

(٢) «البداية والنهاية» (ج٤/ ص١٥٦)، ومسلم (١٨٠٧).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٥)، و«صحيح الجامع» (٥٩٢٤).

وعن البراء أن رسول اللَّه ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، ثم إن رسول اللَّه ﷺ بعث على بن أبى طالب وأمره أن يقفل خالدًا إلا رجلًا كان ممن مع خالد فأحب أن يعقب مع علىّ فليعقب معه . قال البراء : فكنتُ فيمن عقب مع علىّ ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ، ثم تقدم فصلى بنا علىّ ، ثم صفنا صفًّا واحدًا ، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول اللَّه ﷺ ، فأسلمت همدان جميعًا ، فكتب علىُّ إلى رسول اللَّه ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول اللَّه ﷺ الكتاب خَرَّ ساجِدًا ، ثم رفع رأسه فقال : « السَّلَامُ عَلَى هَمَدان ، السَّلَامُ عَلَى هَمَدان »[1] .

وعلىّ رضى اللَّه عنه حَباه اللَّه بمعرفة القضاء الصواب والحكم فيه ، فعن علىّ بن أبى طالب قال : بعثنى رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن ، وأنا حديث السنِّ . قال : فقلت : تبعثنى إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء ، قال : « إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِى لِسَانَكَ ، وَيُثَبِّتُ قَلْبَكَ » . قال : فما شككت فى قضاء بين اثنين[2] .

وقال علىّ : بعثنى رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن قال : فقلتُ : يا رسول اللَّه ، تبعثنى إلى قوم أسن منى ، وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ قال : فوضع يده على صدرى وقال : « اللَّهُمَّ ثَبِّتْ لِسَانَهُ ، وَاهْدِ قَلْبَهُ ، يَا عَلِيُّ إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِ بَيْنَهُمَا حتَّى تَسْمَعُ مِنَ الْآخَرِ مَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ تَبَيَّنَ لَكَ » . قال : فما اختلف عَلَيَّ قَضَاءٌ بَعْدُ ، أو ما أَشْكَلَ عَلَيَّ قَضَاءٌ بَعْدُ[3] .

وهذه بعض قضايا علىّ رضى اللَّه عنه ، فعن زيد بن أرقم : أن نفرًا وطئوا امرأة فى طهر ، فقال عَلِيٌّ لاثنين : أتطيبان نفسًا لذا ؟ فقالا : لا . فأقبل على الآخرين فقال : أتطيبان نفسًا لذا ؟ فقالا : لا . فقال : أنتم شركاء متشاكسون . فقال : إنى

---

(١) البيهقى فى «الكبرى» (٢/ ٣٦٩)، وقال: أخرج البخارى صدر هذا الحديث فلم يسقه بتمامه وسجود الشكر فى تمام الحديث صحيح على شرطه.

(٢) « سنن ابن ماجه ». (٢٢١٠)، وصححه الألبانى رحمه الله.

(٣) أبو داود (٣٥٨٢)، وحسنه الألبانى رحمه الله.

مقرع بينكم ، فأيكم قرع أغرمته ثلثى الدية ، وألزمته الولد له . قال : فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا قَالَ عَلِيٌّ(١) » .

ومما يدل على فطنته رحمه اللَّه وسرعة بديهته ما نقل عنه فى المسألة المنبرية فى الميراث ، وذلك لأنه سئل عنها وهو على المنبر يخطب وصورتها : مات الزوج وترك زوجة وبنتين وأبوين ، وكان صدر خطبته : الحمد لله الذى يحكم بالحق قطعًا ، ويجزى كل نفس بما تسعى ، وإليه المآب والرجعى ، فسئل فقال : صار ثمنها تسعًا . . ومضى فى خطبته ، أى : قد كان للمرأة قبل العول ثمنًا ، فصار بالعول تسعًا ، وهو ثلاثة من سبعة وعشرين(٢) .

وهذا أمر يحتاج لجهد حتى يحسب وتخرج نتيجته ، لكن الموفق من وفقه اللَّه سبحانه ، وطيب اللَّه ثرى من قال :

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ إِلَّا الْحَدِيثَ وَعِلْمُ الْفِقْهِ فِى الدِّينِ
الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

وهم تربية القرآن والسنة على يد النبى محمد ﷺ ، وفى غزوة تبوك رفع اللَّه منزلة علىّ رضى اللَّه عنه ، فسعد بن أبى وقاص قال : خلف رسول اللَّه ﷺ عليًّا بن أبى طالب فى غزوة تبوك ، فقال : يا رسول اللَّه تخلِّفنى فى النساء والصبيان ، فقال : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّه لَا نَبِىَ بَعْدِى »(٣) .

وحبه من الإيمان ، وبغضه من النفاق؛ لقول النبى ﷺ فى حقه ذلك ، قال علىٌّ رضى اللَّه عنه : واللَّهِ إِنَّهُ مِمَّا عَهِدَ إِلَىَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يُبْغِضُنِى إِلَّا مُنَافِقٌ ، وَلَا يُحِبُّنِى إِلَّا مُؤْمِنٌ(٤) .

---

(١) أبو داود، وصححه الألبانى (٢٢٦٩).

(٢) هو مخرج فى تحقيقات الشيخ الألبانى رحمه الله «لمنار السبيل» (١٧٠٦/ ١).

(٣) البخارى (٣٧٠٦)، ومسلم (٣٢).

(٤) مسلم فى كتاب الإيمان ، واللفظ لأحمد ، وأما لفظ مسلم : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلىّ أنْ لا يُحِبَّنى إلَّا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق» .

وعن زاذان قال : سمعت عليًا بالرُّحْبَة وهو ينشد الناس : من شهد رسول اللَّه ﷺ فى يوم غدير خُمّ - وهو مكان بين مكة والمدينة - وهو يقول ما قال ، فقام ثلاثة عشر رجلًا ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ »[1].

وكان رضى اللَّه عنه فصيحًا بليغًا فى خطابته ، وكلامه الوجيز اللفظ ، الكثير المعنى ، فعن مهاجر بن عمير قال : قال علىُّ بن أبى طالب : إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما ابتاع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حساب ولا عمل[2]. فليتأهب العبد لما هو آت ، فكلما مر عليك يوم نقص بعضك.

أَنْــتَ فِــى دَارِ شَــتَــاتٍ فَــتَــأَهَّــبْ لِــشَــتَــاتِــك
واجْــعَــلِ الــدُّنْــيَــا كَــيَــوْمٍ صُــمْــتَــهُ عَــنْ شَــهَــوَاتِــك
واجْــعَــلِ الْــفِــطْــرَ إذَا مَــا نِــلْــتَــهُ يَــوْمَ مَــمَــاتِــك
وَاطْلُبِ الْعَيْشَ بِعَيْشِ الدَّ هْـرِ مِـنْ طُـولِ حَـيَـاتِـك

وتوفِىَ النبى ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى ، وتلاه خليفة المسلمين الراشد أبوبكر الصديق ، ثم عمر ، ثم عثمان رضى اللَّه عنهم.

ولكن الألسن بدأت تخوض فى علىّ رضى اللَّه عنه ، من مغال فيه ،ومن منتقص له ، وكان الأولى بها أن تنظر فى حالها قبل النظر فى حال الآخرين.

إنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا وَدِينُكَ سَالِمٌ وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانَكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنُكَ إنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَسَاوِئًا فَصُنْهَا وَقُلْ : يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

(١) أحمد (١/ ٨٤)، وابن أبى عاصم (١٣٧٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٥٠).
(٢) رواه الإمام أحمد فى «الزهد» (١٢٤).

وكان الأولى بهم أن يلزموا طريق الوسطية طريق أهل السنة ، فهو الذى يوصل للصواب .

تَحَرَّ مِنَ الطُّرُقِ أَوْسَاطَهَا وَعُدْ عَنِ الْجَانِبِ الْمُشْتَبَه
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيـ ـحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِه
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيـ ـحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِه

ولما فُجع المسلمون بمقتل عثمان رضى اللَّه عنه ، ويكفى لبيان ما كان لهذه الفاجعة الكبرى من الأثر فى النفوس ما نقله البلاذرى فى أنساب الأشراف عن المدائنى عن الحسن ، قال : دخل على يومًا على بناته وهن يمسحن عيونهن ، فقال : ما لكن تبكين ؟ قلن : نبكى على عثمان . فبكى ، وقال : ابكين[١] .

وقال ابن العربى رحمه اللَّه : ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقًى ودينًا ، فانعقدت له البيعة ، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلى لجرى على من بها من الأوباش ما لا يرقع خرقه ، ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضًا عليه ، فانقاد إليه[٢] .

وعن الشعبى قال : أتى الناس عليًا وهو فى سوق المدينة ، وقالوا له : ابسط يدك نبايعك . قال : لا تعجلوا ، فإن عمر كان رجلًا مباركًا ، وقد أوصى بها شورى ، فأمهلوا حتى يجتمع الناس ويتشاورون . فارتد الناس عن علىّ ثم قال بعضهم : إن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقم بعده قائم هذا الأمر لم نأمن اختلاف الناس وفساد الأمة ، فعادوا إلى علىّ فأخذ الأشتر بيده ، فقبضها علىّ ، فقال : ابْعُدْ . ثلاثًا ، فقال الأشتر : أما واللَّه لئن تركتها لتعصرن عينيك عليها حينًا . فبايعته العامة ، وأهل الكوفة يقولون : أول من بايعه الأشتر[٣] .

قال محب الدين الخطيب : وهذه الوقائع على بساطتها تدل على أن بيعة علىّ

(١) «أنساب الأشراف» (١٠٣/٥).

(٢) «العواصم» (١٤٧).

(٣) الطبرى (١٥٦/٥).

كانت كبيعة إخوانه من قبل ، جاءت على قدرها وفى إبانها ، وأنها مستمدة من رضا الأمة فى حينها ، لا من وصية سابقة مزعومة ، أو رموز خيالية موهومة[١] .

ووُضِع علىّ رضى اللّه عنه فى موقف صعب فها هم قتلة عثمان ما زالوا فى المدينة ، وبدأت تظهر مع بيعته رضى اللّه عنه من يطالب بدم عثمان ، والقصاص ممن قتله ، وكيف يرتب علىٌّ رضى اللّه عنه أموره ، ويثبت دعائم دولته فى هذا الجو المنذر بالفتن الكثيرة ؟ وكان الإمام أحمد رحمه اللّه إذا سئل عمَّا حدث بين الصحابة فيما بعد من معارك ، كان يقول : تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ، ولكن لكثرة الدس والتشويه والطعن فى مآخذ الصحابة ، وكثرة الأحاديث الموضوعة والباطلة والضعيفة التى وردت فى كتب التاريخ والمراجع التى سجلت هذه الوقائع كان لزامًا من بيان الحق وتوضيحه ، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه عمَّا شجر بين الصحابة رضى اللّه عنهم جميعًا علىّ ومعاوية وطلحة وعائشة هل يطالبون به أم لا ؟ فأجاب : قد ثبت بالنصوص الصحيحة أن عثمان وعليًّا وطلحة والزبير وعائشة من أهل الجنة ، بل قد ثبت فى الصحيح أنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، وأبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان هم من الصحابة ، ولهم فضائل ومحاسن ، وما يحكى عنهم كثير منه كذب ، والصدق منه كانوا فيه مجتهدين ، فالمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، وخطؤه يغفر له ، وإن قدر أن لهم ذنوبًا ، فالذنوب لا توجب دخول النار مطلقًا ، إلَّا إذا انتفت الأسباب المانعة من ذلك ، وهى عشرة : منها التوبة ، ومنها الاستغفار ، ومنها الحسنات الماحية ، ومنها المصائب المكفرة ، ومنها شفاعة النبى ﷺ ، ومنها شفاعة غيره ، ومنها دعاء المؤمنين ، ومنها ما يهدى للميت من الثواب والصدقة والعتق ، ومنها فتنة القبر ، ومنها أهوال القيامة ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِى بُعِثْتُ فِيهِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » . وحينئذٍ فمن جزم فى واحد من هؤلاء بأن له ذنبًا يدخل به النار قطعًا فهو

(١) تعليقات على «العواصم» (ص١٤٨).

كاذب مفتر ، فإنه لو قال : لا علم له به . لكان معطلًا ، فكيف إذا قال ما دلت الدلائل الكثيرة على نقيضه ؟ فمن تكلم فيما شجر بينهم وقد نهى اللَّه عنه من ذمهم أو التعصب لبعضهم بالباطل ، فهو ظالم متعد ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، تصلهم أولى الطائفتين بالحق » . وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال عن الحسن : «إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح اللَّه به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ، وفى الصحيحين عن عمَّار أنه قال : «تقتله الفئة الباغية» ، وقد قال تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝﴾ [الحجرات : ٩] . فثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف على أنهم مؤمنون مسلمون ، وأن على بن أبى طالب والذين معه كانوا أولى بالحق من الطائفة المقابلة له ، واللَّه أعلم[١] .

وما أحسن ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللَّه تعالى : « . . . إنى لست من حربهم فى شىء » . يعنى : أن ما تنازع فيه علىّ وإخوانه لا أدخل بينهم فيه؛ لما بينهم من الاجتهاد والتأويل الذى هم أعلم به منى ، وليس ذلك من مسائل العلم التى تعنينى حتى أعرف حقيقة حال كل واحد منهم ، وأنا مأمور بالاستغفار لهم ، وأن يكون قلبى لهم سليمًا ، ومأمور بمحبتهم وموالاتهم ، ولهم من السوابق والفضائل ما لا يهدر[٢] .

وقال البعض : بايع عليًّا وعقد البيعة له يد شلاء . يشيرون ليد طلحة ، فلو صح - وما هو بصحيح - فإن يدًا شلت فى وقاية رسول اللَّه ﷺ يتم لها كل أمر ، ويتوقى بها كل مكروه ، وقد قال النبى ﷺ فيه : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ »[٣] . وكان أبوبكر رضى اللَّه عنه إذا سئل عن طلحة يوم أحد قال : ذاك يوم طلحة .

---

(١) «الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٤٣٢، ٤٣٣).

(٢) تعليقات الشيخ محمود الإستانبولى على «العواصم» (ص ٢٧٠).

(٣) إسناده صحيح لشواهده كما جاء فى الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٢) .

وقتلة عثمان كان لهم دور كبير فى بث الحرب ، فعند الطبرى : وكان الصحابى الجليل القعقاع بن عمرو التميمى قد قام بين الفريقين بالوساطة الحكيمة المعقولة ، فاستجاب له أصحاب الجمل وأذعن علىٌّ لذلك ، وبعث علىّ إلى طلحة والزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر فى الأمر ، فأرسلا إليه : إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس(١). قال ابن كثير : فاطمأنت النفوس وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث علىّ عبد اللّه بن عباس إليهم. وبعثوا محمد بن طلحة السجاد إلى علىّ ، وعولوا جميعًا على الصلح ، وباتوا بخير ليلة يبيتون بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط قد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على نشاب الحرب فى السر ، واستسروا بذلك؛ خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر ، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالًا(٢).

ولا يشمل أصحاب النبى ﷺ فيما حدث من قتال حديث : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا ، فَالْقَاتِلُ والْمَقْتُولُ فِى النَّارِ » . قالوا : يا رسول اللّه ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » .

فهؤلاء الصحب الكرام كانوا مجتهدين فيما حدث بينهم ، فعلى رضى اللّه عنه له وجهته ، ومعاوية ومن كان معه ممن يطالب بدم عثمان له وجهته ، ويدخل هذا تحت حديث : « إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ » .

وأما خروج عائشة رضى اللّه عنها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها لم تقاتل ولم تخرج لقتال ، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين ، وظنت أن فى خروجها مصلحة للمسلمين ، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى ،

---

(١) الطبرى (٥/ ١٩٩).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٣٩)، والطبرى (٥/ ٢٠٢، ٢٠٣)، و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/ ١٨٥، ٣/ ٢٢٥، ٢٤١).

فكانت كلما ذكرت تبكى حتى تبل خمارها ، وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم طلحة والزبير رضى اللَّه عنهم جميعًا ، ولم يكن لهؤلاء قصد فى القتال ، ولكن وقع القتال بغير اختيارهم[١] .

وعامَلَها عليٌّ رضى اللَّه عنه معاملة حسنة ، فقد جاء إلى أم المؤمنين عائشة وقال لها : غفر اللَّه لك . قالت : ولك ما أردتُ إلا الإصلاح . ثم أنزلها دار عبد اللَّه بن خلف ، وهى أعظم دار فى البصرة على سنية بنت الحارث ، أم طلحة الطلحات ، وزارها ورحبت به وبايعته ، وجلس عندها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلين ينالان من عائشة ، فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كل منهما مائة جلدة ، وأن يجردهما من ثيابهما ، ففعل[٢] .

ولما أرادت الخروج من البصرة بعث إليها بكل ما ينبغى من مركب وزاد ومتاع ، وأرسل معها أربعين امرأة ، وسيَّر معها أخاها محمدًا ، ولما كان اليوم الذى ارتحلت فيه جاء عليٌّ رضى اللَّه عنه فوقف على الباب ، وخرجت من الدار فى الهودج ، فودعت الناس ، ودعت لهم ، وقالت : يا بنى لا يغتب بعضكم بعضًا ، إنه واللَّه ما كان بينى وبين عليِّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه لمن الأخيار . فقال عليٌّ رضى اللَّه عنه : صدقت ، واللَّه ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها زوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة . وسار معها مودعًا أميالًا ، سرَّح بيته معها بقية ذلك اليوم[٣] .

ولم يكن انتقامًا من عليٍّ ، أى : خروج عائشة؛ لما قاله فى حادث الإفك .

ونحيل قارئنا الكريم فى هذا الأمر برمته على ما كتبه أستاذنا المبجل الدكتور حامد الطاهر فى حديثه عن معاوية رضى اللَّه عنه ، وقد ظهر بعد قضية التحكيم فرقة الخوارج الذين تطور أمرهم بعد قولهم : لا حكم إلا لله . تطور أمرهم لسب

---

(١) «المنتقى» (٢٢٣).

(٢) الطبرى (٥/ ٢٢٣).

(٣) «التحفة» (٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥، ٢٧٦ باختصار) .

عليّ وشتمه ، وقد ناظرهم عبد اللَّه بن عباس ، فرجع منهم طائفة كما ورد فى ترجمة حبر الأمة عبد اللَّه بن عباس ، ثم سار عليُّ بن أبى طالب إلى بقيتهم الذين تسللوا من ديارهم ، وتركوا بيوتهم ليجتمعوا وتكون لهم شوكة وأمير ، وأمروا عليهم عبد اللَّه بن وهب الراسبى ، وفى مسيرهم للنهروان قابلوا خنزيرًا ، فقربه بعضهم ، فشق جلده ، فقال له آخر : لِمَ فعلت هذا وهو لذمى ؟ فذهب إلى ذلك الذمى فاستحله وأرضاه ، وبينا هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم ، فألقاها فى فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولا ثمن ، فألقاها ذلك من فمه ، ومع هذا قدموا عبد اللَّه ابن خباب فذبحوه ، وجاءوا إلى امرأته ، فقالت : إنى امرأة حبلى ، ألا تتقون اللَّه ، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها ، فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهله أن يخلفهم هؤلاء فى ذراريهم وديارهم بهذا الصنيع ، فخافوا غائلتهم ، وأشاروا على عَلِيٍّ أن يبدأ بهؤلاء[(١)(٢)].

ونصحهم عليٌّ ووبخهم وقال لهم : فارجعوا إلى ما خرجتم منه ، ولاترتكبوا محارم اللَّه ، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمرًا ، تقتلون عليه المسلمين ، واللَّه لو قتلتم دجاجة لكان عظيمًا عند اللَّه ، فكيف بدماء المسلمين ، فردوا عليه كلامه ، وقالوا : الرواح إلى الجنة ، الرواح إلى الجنة . . . وأَمَرَ عليٌّ أبا أيوب الأنصارى أن يرفع راية أمان للخوارج ، ويقول : من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا ، فانصرف منهم طوائف كثيرون ، وكانوا فى أربعة آلاف ، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع الراسبى . . ودخلوا الحرب فقتل قائدهم. قال أبو أيوب : وطعنت رجلًا من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره ، وقلت له : أبشر يا عدو اللَّه

(١) «البداية والنهاية» بتصرف (ج٧ص ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) هذا الذى تبناه الخوارج نابع عن مذهبهم فى تكفير الناس بالذنب ، ولا يعذرون بجهل ، بل عندهم من أذنب كفر واستحل دمه وتبنوا الخروج على من لم ير رأيهم فخرجوا على عليٍّ وقاتلوه، والمسلم لا يخرج من الإسلام إلا بيقين لا شك فيه ، ولا يكفر بالذنب ما لم يستحله وهو يعرفه لا يجهله.

بالنار . فقال : ستعلم أينا أولى بها صليًا . قالوا : ولم يقتل من أصحاب عليّ إلا سبعة نفر ، وجعل عليّ يشمى بين القتلى منهم ويقول : بؤسًا لكم ، لقد ضركم من غركم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ومن غرهم؟ قال : الشيطان وأنفس بالسوء أمارة غرتهم بالأمانى ، وزينت لهم المعاصى ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . ثم أمر بالجرحى من بينهم ، فإذا هم أربعمائة ، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم ، ولم يخمس ما أصاب من الخوارج من النهروان ، ولكن رده إلى أهله كلَّه[١].

وقد بحث عليّ عن رجل يُقال له : ذو الثدية (لحم مجتمع على كتفه كثدى المرأة له حلمة عليها شعرات سود)... فلما وجد المخدج هذا سجد سجدة طويلة ، وقال عليّ عن الخوارج : إخواننا بغوا علينا ، فقاتلناهم ببغيهم علينا[٢].

ولم ينعتهم بنفاق ولا كفر ، وعذرهم بجهلهم رضى اللَّه عنه ، ولم يعاملهم بعملهم ، وقد وردت فيهم أحاديث مثل قول النبى ﷺ : «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى يَقْرَءون الْقُرْآنَ لَيْسَ قراءتُكم إِلَى قِراءتِهم بِشَيْءٍ ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَيَقْرُءون الْقُرْآنَ ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ» . وقال : «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى فِى آخِرِ الزَّمانِ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ، يَقْرَءون الْقُرآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» . قال عبدالرحمن : لا يجاوز إيمانهم حناجرهم - «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّ فِى قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَاتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣]. وفى رواية : «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، سِيمَاهُمْ أَوْ فِيهِمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ مُخدج الْيَدِ ، فِى يَدِهِ شَعَرَاتٌ سُودٌ ، إِنْ كَانَ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ»[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (ج٧ص ٢٣٤، ٢٣٥ بتصرف).

(٢) البيهقى فى «السنن الكبرى» (٨/ ١٧٣)، وابن أبى شيبة فى «مصنفة» (٧/ ٥٣٥).

(٣) البخارى (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

(٤) أحمد (١/ ٢٥٦).

وقد اتفق طائفة من الخوارج على قتل علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، وكان علىّ رضى اللَّه عنه المتسلط عليه من الخوارج يدعى عبد الرحمن بن ملجم ، فعن أبى الطفيل قال : دعا علىّ الناس للبيعة ، فجاء عبد الرحمن بن مُلجم المُرادى ، فرده مرتين ، ثم أتاه فقال : ما يحبس أشقاها ؟ لتخضبن أو لتصبغن هذه - يعنى لحيته من رأسه - ثم تمثل بهذين البيتين :

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكَ
وَلَا تَجْزَعْ مِنَ الْقَتْلِ إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَ

وكان رضى اللَّه عنه قد ملَّ أهل الكوفة وما فعلوه معه ، وكثرة الفتن التى حدثت ، وقال : اللَّهُمَّ سئمتهم وسئمونى ، وكرهتهم وكرهونى ، اللَّهم فأرحهم منى وأرحنى منهم . قال : فما صلى الجمعة الأخرى حتى قتل - رحمه اللَّه - على يد عبد الرحمن بن ملجم الذى ورد ذكره ، فعن علىّ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «من أشقى الأولين» : قال علىٌّ : عاقِرُ النَّاقَةِ . قال النبى ﷺ : « صَدَقْتَ » . قال : « فَمَنْ أَشْقَى الْآخِرِينَ ؟ » قلتُ : لا علم لى يا رسول اللَّه . قال : « الَّذِى يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ » . وأشار بيده على يافوخه ، « فَيَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ » . يعنى : لحيته من دم رأسه ، قال : فكان يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم[1] .

وقد ورد فى البداية والنهاية أن امرأة جميلة أغرت ابن ملجم بعد أن شارطها على الزواج أن ينتقم ممن قتل أباها وأخاها ، تشير لِعَلِىّ ، فوافق ، وكان قد أضمر هذا من قبل . ولما ضرب علىّ رضى اللَّه عنه جعل يردد الشهادة ، وجىء بابن ملجم فقال له : أى عدو اللَّه ، ألم أُحسن إليك ؟ قال : بلى . قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحًا ، وسألت اللَّه أن يقتل به شر خلقه . فقال له علىٌّ : لا أراك إلا مقتولًا به ، ولا أراك إلا من شر خلق اللَّه . ثم قال : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به ؟ فقال جندب بن عبد اللَّه : يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن . فقال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر . وقد

(١) صححه الشيخ الألبانى رحمه الله فى «السلسلة الصحيحة» (١٠٨٨).

أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى اللّه ، والصلاة ، والزكاة ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش ، ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية ، ووصاه بما وصاهما به ، وأن يعظمهما ولا يقطع أمرًا دونهما[1].

تَطَلَّبْ سَبِيلَ الْهُدَى جَاهِدًا   وَدَعْ عَنْكَ مُشْتَبَهَاتِ السُّبُل

وَأَصْبِحْ مِنَ النَّاسِ مُسْتَوْفِزًا   فَأَكْثَرُهُمْ رَاصِدٌ لِلزَّلَل

وأجبن مَنْ قَدْ تَرَى مِنْهُمْ   لَعَمْرُكَ يُردى الشُّجاع البطل

(١) «البداية والنهاية» (ج٧ ص٢٦٦، ٢٦٧).

[٥] أبو عبيدة بن الجراح

قال اللَّه سبحانه وتعالى مخبرًا عن ابنة شعيب : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص : ٢٦] قال ابن كثير : «أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل ، وهى التى ذهبت وراء موسى على السلام ، قالت لأبيها : استأجره ، أى : لرعية هذه الغنم ، قال بعض السلف : لما قالت : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اختلف علىَّ الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه[١].

إن هاتين الصفتين العظيمتين وهما : القوة والأمانة لهما فى غاية الأهمية فى مجتمعنا المسلم ، ونحن نحتاج أن يتحلى بهما المسلم وينزلهما إلى أرض الواقع ، فتعال معى نحث الخطى وراء آثار الصحابى الجليل ، أبى عبيدة عامر بن عبد اللَّه بن الجراح الذى تميز بهاتين الصفتين فى آن واحد - فلله دره - ولقد وسمه النبى ﷺ بصفة الأمانة ، وليس المقصد بها أمانة على دراهم أو دنانير ، بل الأمانة هى الدين كله ، قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب : ٧٢] . قال ابن التين رحمه اللَّه : الأمانة هى الدين كله . فتخيل شخصًا تحمل كل أعباء الدين ومسئولياته وتكاليفه على كتفه عملًا بقوله تعالى : ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء : ٨٤] ، إنه صاحبنا أبو عبيدة رضى اللَّه عنه ، فعن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «إن لكل أمة أمينًا ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٢].

وعنه أيضًا أن أهل اليمن لما قدموا على رسول اللَّه ﷺ سألوه أن يبعث معهم

---

(١) ابن كثير (ج٣/ ص٣٨٥).

(٢) البخارى (٣٧٤٤)، ومسلم فى باب فضائل أبى عبيدة.

رجلًا يعلمهم السنة والإسلام ، فأخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح ، فقال : «هذا أمين هذه الأمة»[١] ، وكان من الذين أسلموا على يد الصديق أبى بكر رضى اللَّه عنهما ، ولقد صدق النبى ﷺ عندما وصفه بهذا الوصف ، ولننظر إلى التطبيق العملى الذى نحتاجه ونريد أن نتحلى به ، فهو يسير على من يسره اللَّه عليه ، فعن جابر بن عبد اللَّه قال : بعثنا رسول اللَّه ﷺ ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عير قريش ، فأقمنا بالساحل نصف شهر ، فأصابنا جوع شديد ، حتى أكلنا الخبط - ورق الشجر عندما يضرب بالعصى فيسقط - فسمى ذلك الجيش جيش الخبط ، فألقى لنا البحر دابة يقال لها : العنبر - نوع من أنواع السمك والحيتان - فأكلنا منه نصف شهر ، وادَّهنا من ودكه حتى ثابت إلينا أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه فعمد إلى أطول رحل معه ، قال سفيان مرة ضلعًا من أضلاعه فنصبه وأخذ رحلًا وبعيرًا فمر تحته ، قال جابر : وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر (ذبائح) ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه - حتى لا يقل الظهر الذى يحملهم -. وفى رواية : - لما بعثهم - وهم ثلاثمائة فخرجنا وكنا ببعض الطريق فنى الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان مزودى تمر ، فكان يقوتنا كل يوم قليلًا قليلًا ، حتى فنى ، فلم يكن يصبينا إلا تمرة تمرة ، فقلتُ : ما تغنى عنكم تمرة ، فقال : لقد وجدنا فقدها حين فنيت[٢].

وفى رواية : - لما القى البحر الدابة - الحوت ميتًا ، قال : ميتة ميتة ، لا تأكلوه ، ثم تفكر أنهم فى حالة ضرورة ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام : ١١٩] فقال : كلوه ، نحن فى حالة ضرورة. ورواية أخرى : كنا نمص التمرة ، ونشرب عليها الماء.

فالحمد لله الذى قيض لهذا الدين رجالًا أمناء كأمثال أبى عبيدة ، لم يكن الجوع مفتاحًا لأن يفعلوا الشيء بدون دليل ، بل فى اللحظات الشديدة الأمانة

---

(١) البخارى عن حذيفة (٣٧٤٥).

(٢) البخارى (٤٣٦٠، ٤٣٦١، ٤٣٦٢)، كتاب المغازى، (١٩٥٣) كتاب الصيد.

تقتضى أن يقتسموا التمر ، ولا يأكلوا الحوت إلا بإذن أميرهم ، وزاد فرحهم لما رجعوا المدينة ، وحكوا للنبى ﷺ فقال : «هل معكم منه شيء ؟»؛ إقرارًا من النبى ﷺ لهم على صنيعهم ، وقال : « هذا رزقٌ ساقَهُ اللَّهُ لكم »[١] . فالأمانة على الدين تجعلهم يتحملون أقصى درجات الجوع فى سبيل مرضاة اللَّه سبحانه ، بل تجعلهم حتى بعد الفعل بالدليل يسألون النبى محمدًا ﷺ عن هذه الوقعة ، فيزداد فرحهم لتوفيق اللَّه لهم إلى الحق ، وهكذا هو الأمين ومن معه دائمًا يتهمون أنفسهم ، ويبحثون وراء أعمالهم ، هل وافقت ما يرضى اللَّه ؟ فإن أصابوها عاد الأمر على نفوسهم بالراحة ، فهم يحاسبون أنفسهم ، ولا يجدون فى ذلك غضاضة .

إِلَـهِـى لَا تُـعَـذِّبْـنِـى فَـإِنِّـى ... مُـقِـرٌّ بِـالَّـذِى قَـدْ كَـانَ مِـنِّـى
فَـمَـا لِـى حِـيـلَـةٌ إِلَّا رَجَـائِـى ... وَعَفْوُكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّى
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِى فِى الْخَطَايَا ... وَأَنْـتَ عَـلـىَّ ذُو فَـضْـلٍ وَمَـنِّ
إِذَا فَكَّرْتُ فِى نَدَمِى عَلَيْهَا ... عَضَضْتُ أَنَامِلِى وَقَرَعْتُ سِنِّى
أُجَـنُّ بِـزَهْـرَةِ الـدُّنْـيَـا جُـنُـونًـا ... وَأَقْطَعُ طُولَ عُمْرِى بِالتَّمَنِّى
وَبَـيْـنَ يَـدَىَّ مُـحْـتَـبَـسٌ طَـوِيـلٌ ... كَـأَنِّـى قَـدْ دُعِـيـتُ لَـهُ كَـأَنِّـى
وَلَوْ أَنِّى صَدَقْتُ الزُّهْدَ عَنْهَا ... قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ
يَـظُـنُّ الـنَّـاسُ بِـى خَـيْـرًا وَإِنِّـى ... لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّى

فلننظر إلى هؤلاء الصحب الكرام ونتأسى بهم ، فهم نِعْم القدوة التى سبقتنا إلى أبواب المعالى وصنوف المكارم ، ورايات المجد العالية الخفاقة ، فلطالما ضربوا بأسهم الخير أبوابًا ، ففتحوها ، وتركوا هذه النماذج البراقة تلمع أمامنا دائمًا ، وتشوقنا لأن نفعل مثلما فعلوا فى صبرهم وأمانتهم ، وقوة قلوبهم ، وحبهم لنصرة دينهم ، ثم تختلط الأمانة مع القوة وإظهار الحق فى موقف من أصعب المواقف

---

(١) مسلم (٢/ ١٣٥، ١٤٥، ١٤٦).

التى واجهت هذا الجبل الأشم فى صورة اختبار قاسى يصفه صاحب صور من حياة الصحابة[(١)] :

عاش أبو عبيدة تجربة المسلمين القاسية فى مكة منذ بدايتها إلى نهايتها ، وعانى مع المسلمين السابقين من عنفها وضراوتها والآمها وأحزانها ما لم يعانه أتباع دين على ظهر الأرض ، فثبت للابتلاء وصدق اللَّه ورسوله فى كل موقف ، لكن محنة أبى عبيدة يوم بدر فاقت فى عنفها حسبان الحاسبين ، وتجاوزت خيال المتخيلين. انطلق أبو عبيدة يوم بدر يصول بين الصفوف صولة من لا يهاب الرَّدَى ، فهابه المشركون ، ويجول جولة من لا يحذر الموت ، فحذره فرسان قريش ، وجعلوا يتنحون عنه كلما واجهوه ، لكن رجلًا واحدًا منهم جعل يبرز لأبى عبيدة فى كل اتجاه ، فكان أبو عبيدة ينحرف عن طريقه ويتحاشى لقاءه ، ولحَّ الرجل فى الهجوم وأكثر أبو عبيدة من التنحى ، وسَدَّ الرجل على أبى عبيدة المسالك ، ووقف حائلًا بينه وبين قتال أعداء اللَّه ، فلما ضاق به ذَرْعًا ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته فلقتين ، فخر الرجل صريعًا بين يديه.

فانظر من هذا الذى يتربص بأبى عبيدة إلى هذا الحد ، وفى النهاية يضربه أبو عبيدة ضربة الموت؛ ليستريح منه ، إنه وللأسف الأب المشرك الذى مات على شركه ، فأنزل اللَّه ما يزين ساحة أبى عبيدة ويرفع من شأنه ، فالأب مشرك ، والابن مسلم ، وأنى يسكت الابن المسلم على الشرك الذى ملأ أباه ، فلابد من التخلص من هذا الشرك طالما أنه لا يريد للإسلام وجودًا حتى وإن كان ابنه الذى يحمله : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة : ٢٢] . يقول الشوكانى فى فتح القدير تعليقًا على هذا الموقف : الخطاب لرسول اللَّه ﷺ أو لكل من يصلح له ، أى : يحبون ويوالون من عادى اللَّه ورسوله

(١) «صور من حياة الصحابة» (ص ٩٢ ، ٩٣) ، وأصل الخبر فى «تفسير ابن كثير» سورة المجادلة.

وشاقهما . . . وهم جامعون بين الإيمان والموادة لمن حاد اللَّه ورسوله ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة ، وقواهم سبحانه بنصر منه على عدوهم فى الدنيا وسمى نصرهم لهم روحًا ؛ لأنه به يحيى أمرهم[1] . فهذه قوة فى تنفيذ الحق ، وليكن ما يكون ، وليتكلم من يتلكم المهم أن يعيش دين الإسلام قويًا ، وإن كان أبو عبيدة سوف يتنازل عن شخص من أسرته ربَّاه وسهر على رعايته ، ولكن إذا جاء الدين قدم على النفس فحفظه أولى. وانظر لأمنية أمير المؤمنين عمر كما ورد فى صفة الصفوة[2] : إن أبا عبيدة كان أمنية عمر ، وأنه عندما تنظر لعمر فى أمانيه وشاهدته على بعض الأشخاص تعرف أنها كما يقول علماء الحديث : إنها شهادة من بين فكى أسد ، فعن عمر بن الخطاب نفسه أنه قال لأصحابه يومًا : تمنوا . فقال رجل : أتمنى لو أن لى هذه الدار مملؤة ذهبًا أنفقه فى سبيل اللَّه . ثم قال : تمنوا . فقال رجل : أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزَبَرْجَدًا أو جوهرًا أنفقه فى سبيل اللَّه ، وأتصدق به . ثم قال : تمنوا . فقالوا : ما ندرى يا أمير المؤمنين . فقال عمر : أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالًا مثل أبى عبيدة بن الجراح . فقد فطن عمر أن الأموال لا تصنع الرجال ، بل قد تفتنهم ، لكن الرجال أمثال هذه العملة النادرة قليلون ، وطالما أنهم قليلون فيا ليت هناك أمنية تخرجهم لنا ، وتملأ هذا البيت الذى لم يرد عمر أن يملأه أموالًا تنفق فى سبيل اللَّه ، بل رجالًا هم الذين يخدمون دين اللَّه ، ويكونون عليه أمناء أقوياء مخلصون فى خدمته ، هذه أمنية الفاروق ، وطالما شهد له هذا الفاروق ، فإنه حقًّا أمينًا قويًّا يستحق هذا الوسام والشرف الذى كان نصب عينى عمر ، وها هو عمر يرى كما يقول موسى بن عتبة فى مغازيه «غزوة عمرو بن العاص» هى غزوة ذات السلاسل فى مشارف الشام : فخاف عمرو من جانبه ذلك ، فاستمد رسول اللَّه فانتدب أبا بكر وعمر فى سراة من المهاجرين ، فأمَّر نبى اللَّه عليهم أبا عبيدة ، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال : أنا أميركم ، فقال المهاجرون : بل أنت أمير

(١) «فتح القدير» للشوكانى (ج ٥، ص٢٧٥).

(٢) «صفة الصفوة» (ج١، ص١٣٨).

أصحابك وأميرنا أبو عبيدة ، فقال عمرو : إنما أنتم مدد أُمددت بكم ، فلما رأى ذلك أبو عبيدة بن الجراح ،وكان رجلًا حسن الخُلُق ، لين الشيمة ، متبعًا لأمر رسول اللَّه وعهده ، فسلم الإمارة لعمرو(١).

ولما بلغ عمر بن الخطاب سَرْغ (مكان) حُدث أن بالشام وباء شديدًا ، فقال : إن أدركنى أجلى وأبو عبيدة حى استخلفته ، فإن سألنى اللَّه عز وجل لِمَ استخلفته على أمة محمد ﷺ؟ قلت : إنى سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «إن لكل أمة أمينًا . . .»(٢) الحديث.

وقبله أبو بكر عزم على تولية أبى عبيدة الخلافة ، وأشار به يوم السقيفة لكمال أهليته عند أبى بكر ، وقد كانت الخلافة مشحونة بالمسئوليات العظام من قضاء وابتلاءات وحروب وفقراء ومساكين وإصلاح بين المتخاصمين ، وكل طفل وصغير وكبير ورجل وامرأة ، وضعيف وقوى ، فى عنق الخليفة ، وبرغم ذلك لو رضى أبو عبيدة لولاه أبوبكر وعمر الخلافة ، إنه على هذا أمين قوى على كل مسئوليات الأمة ، فالأمة لو احتاجت إلى أى باب من أبواب حاجاتها الكثيرة فسوف يقوم أبو عبيدة بهذا الأمر ، وقبل الجميع ، فأبو عبيدة مزكى من قبل النبى محمد ﷺ ، فهل هذه الشهادات جعلت أبا عبيدة يظن بنفسه يومًا شيئًا من كبر أو عجب ؟ أبدًا ، أبدًا ، بل هو يتحدث عن نفسه فى شهادة شفافة صافية ، فيقول : ما من الناس من أحمر ولا أسود حر ولا عبد عجمى ولا فصيح أعلم أنه أفضل منى بتقوى إلا أحببت أن أكون فى مسلاخه(٣).

فما أحوجنا للتخلق بهذا الخلق الكريم ، فهو شخص مستعد لأن يسد أى باب يحتاجه الإسلام ، وفى نفس الوقت يهضم نفسه حقها ويتمنى أن يكون مقتديًا بأى شخص يرى أنه أفضل منه وهو يعتقد فى قرارة نفسه أن كل الناس أفضل منه.

(١) «سير أعلام النبلاء» (ج٣ ص٥) من ترجمته.
(٢) الإمام أحمد (١/١٨).
(٣) «صفة الصفوة» (ج١، ص١٣٨).

ولقد كان رضى اللَّه عنه محبًا للنبى ﷺ حبًا شديدًا ، ففى غزوة بدر حدث ما حدث مع أبيه ، وفى يوم أحد كان من أشد المدافعين عن النبى ﷺ ،وعندما دخلت حلقتا المغفر فى وجنة النبى ﷺ من ضربة أصابته ، أسرع أبو عبيدة لكى يكون أول من يقلعها من وجه النبى ﷺ ، فقبض على الأولى فانقلعت وسقطت سنة أمامية من أسنان أبى عبيدة ، والأخرى قلعها وسقطت سنة أخرى ، فحسن ثغرة بذهابهما ، حتى قيل : ما رئى هتم قط أحسن من هتم أبى عبيدة. فانظره إنه مستعد أن يتخلى عن أسنانه فى سبيل رؤية النبى ﷺ بعيدًا عن المرض والإيذاء والتعب ، إنه يبادل حبيبه الحب ، كما يبادله هو ، فعن عمرو بن العاص قال : قيل : يا رسول اللَّه ، أى الناس أحب إليك ، قال : «عائشة» قيل : من الرجال ، قال : «أبوبكر» قيل : ثم من ؟ قال : «ثم أبو عبيدة بن الجراح»[١].

وهكذا يمضى الركب كله فى هذا الجو المشحون إيمانًا يتعلم فيه أبو عبيدة رضى اللَّه عنه كيف يتعامل مع غيره ويتعامل مع الدنيا وفتنتها وزهرتها الحلوة الخضراء ، فها هو ذا يحث على العمل كما علمه حبيبه محمد ﷺ ، فقد كان يسير يمًا مع العسكر فيقول : ألا رب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، بادرا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات[٢]. وهذا تحريض منه رضى اللَّه عنه على الإكثار من الحسنات التى تمحو السيئات ، وتكفر عن العبد ما سلف.

وهكذا تمضى الأيام فى حياة بطلنا المبجل رضى اللَّه عنه ، خدومًا للنبى ﷺ أمينًا على دينه ، قويًا فى الحق ، ثم تأتى وفاة النبىﷺ ويصاب المسلمون بفاجعة لم يصابوا بها من ذى قبل ، ولكن قيض اللَّه لها أبا بكر رضى اللَّه عنه ، وهنا تأتى سقيفة بنى ساعدة ، والمسلمون يتداولون فيما بينهم ، من يكون خليفة رسول اللَّه ﷺ ؟ فأفضل الأمة كما هو معروف أبوبكر رضى اللَّه عنه ، ثم عمر بن الخطاب ، والكل يعرف هذا ، لكن من يزاحمهم هذه المنزلة فى الخلافة باعتراف خيرى

---

(١) الترمذى (٣٧٨١) فى مناقبه وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

(٢) «السير» (ج٣ ص١٠)، و«صفة الصفوة» (ج١ ص١٣٨).

الأمة ، فأبوبكر يريد أن يجعلها بين عمر وأبى عبيدة ، وعمر يريد أن يجعلها بين أبى عبيدة وأبى بكر ، وما كان هذا إلا لمنزلة أبى عبيدة رضى اللَّه عنه فى نفسى أبى بكر وعمر رضى اللَّه عن الجميع ، فما عُرف مجتمع مثل هذا يهضم نفسه وينسى أو يتناسى مزاياه فى سبيل الاعتراف لأخيه بمنزلته وفضله أمثال هؤلاء الصحب الكرام.

وتمضى أيام أبى عبيدة خدومًا أمينًا قويًّا كعادته فى خدمة الإسلام وحروبه ، فهو مع الصديق لما تفرغ من حروب الردة وحرب مسيلمة الكذاب ، جهز أمراء الأجناد لتفتح الشام ، فبعث أبا عبيدة - ومعه آخرون - فتمت موقعة أجنادين بقرية الرملة ، ونصر اللَّه المؤمنين ، فجاءت البشرى ، والصديق فى مرض الموت ، ثم كانت وقعة فحل . . . وكان قد سيَّر أبو بكر خالدًا لغزو العراق ، ثم بعث إليه لينجد من بالشام ، فقطع المفاوز - الصحراء- على برية السماوة ، فأمره الصديق على الأمراء كلهم وحاصروا دمشق وتوفى أبوبكر فبادر عمر بعزل خالد ، واستعمل على الكل أبا عبيدة ، فجاءه التقليد فكتمه مدة ، وكل هذا من دينه ولينه وحلمه ، فكان فتح دمشق على يده ، فعند ذلك أظهر التقليد ليعقد الصلح للروم ، ففتحوا له باب الجابية صلحًا ، وإذا بخالدٍ قد افتتح البلد عنوة من الباب الشرقى ، فأمضى لهم أبو عبيدة الصلح[(١)].

وعن المغيرة أن أبا عبيدة صالحهم على أنصاف كنائسهم ومنازلهم ثم كان أبو عبيدة رأس الإسلام يوم وقعة اليرموك التى استأصل اللَّه فيها جيوش الروم ، وقتل منهم خلق عظيم. فيالها من نفس مؤمنة أمينة ، فهو يقاتل بكفاءة شديدة وهو جندى تحت إمرة خالدٍ ، وعند تغير الأوضاع وصيرورة أبى عبيدة للقيادة يكتمها بعض الوقت ، ثم لم يلبث أنه لم يجد بدًّا من التكليف الذى صدر من أمير المؤمنين نفسه فيستجيب خاضعًا منقادًا ونفسه تحدثه يا ليته ما فعل ، فهو يستقبل الأمر بتواضعه الشديد فهو الأمين ، وهل من الأمانة أن يستقبل مثل هذا بتكبر أو يزرى على غيره ؟! كلا فهو القوى على عدوه.

(١) «السير» للذهبى (ج٣ ص١٢).

وفى نفس الوقت الأمين على مسئولياته الجمة العظيمة. وما زالت أمانته هذه تثير العجب، فقد كتب إليه عمر رضى اللَّه عنه لما انتشر الطاعون فى الشام : إنه قد عرضت لى حاجة، ولا غنى بى عنك فيها، فعجل إلىَّ، فلما قرأ الكتاب قال : عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى من ليس بباق، فكتب إنى قد عرفت حاجتك، فحلِّلنى من عزيمتك، فإنى فى جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسى عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له : مات أبو عبيدة، قال : لا، وكأن قد[1]، أى : أوشك على الموت، وما هى إلا أيام قلائل حتى أصيب رضى اللَّه عنه بالطاعون، فلما حضرته الوفاة أوصى جنده، فقال : إنى موصيكم بوصية، إن قبلتموها لن تزالوا بخير، أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا، وحجوا، واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن المرء لو عُمر ألف حَوْل ما كان له من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون، إن اللَّه كتب الموت على بنى آدم، فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم ميعاده، والسلام عليكم ورحمة اللَّه، ثم التفت لمعاذ بن جبل، وقال : يا معاذ، صلِّ بالناس، ثم توفى. فقام معاذ وقال : أيها الناس، إنكم قد فجعتم برجل - واللَّه - ما أعلم أنى رأيت رجلًا أبر صدرًا ولا أبعد غائلة - حقدًا - ولا أشد حبًّا للعاقبةِ، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه، يرحمكم اللَّه.

إنه الأمين حتى فى اللحظات الأخيرة، وهو يسلم روحه إلى خالقها سبحانه وتعالى، إنه ينظر لحالة جنده فيما بعده، ماذا يفعلون؟ فيوصيهم بوصية ذهبية تبرق فيها حقيقةُ الدُّنيا وحقيقة الطاعة ومآل الشخص فى نهاية حياته، فرحمك اللَّه يا أبا عبيدة ورزق الأمة المسلمة منك ما تحتاجه.

ومن هذه الأمثلة والنماذج نتعرف على الأسباب والعوامل التى ساعدت على قيام مثل هذه الشخصية القوية الأمينة، فإنها وقبل كل شىء نكرر ولا غضاضة إنها عناية اللَّه بهم، وفضله عليهم، ثم التربية الجادة من النبى ﷺ وأصحابه الذيبن

(١) «السير» (ج٣ ص١٠، ١١).

حملوا مشعل الهداية من بعده ، فها هو أبوبكر وعمر يدركون كلمة أمين الأمة ، ويستعملونه فى المكان المناسب لهذه الصفة العظيمة التى زكى النبى ﷺ فيه هذه المزية وغيرها ، فطوبى لعبد نشأ فى مجتمع كهذا ، وأعان اللَّه أن تمتلأ بيوتنا بأمثال هذا البطل اقتباسًا من أمنية الفاروق ، ولشدة ما نحتاج إلى هذا ، فنقول : اللَّهم استجب ، وأعد علينا دروسًا وعبرًا من قبسات وضوء هذا النجم اللامع فى سماء المسئوليات والتكليفات ، فتخيل أى عمل فى الشريعة وبدون مبالغة ، قل لأبى عبيدة : عليك بفعله ، وسوف تجده يلبى ويسمع ، فنحن فى هذه الأيام أشد حاجة أن نلبى صرخات واستغاثات الإسلام ، أغيثونى ، احملونى ، أوصلونى لما أريد ، بَلِّغُونى ذُرَا المجد ، ولكن صفات هذا البطل من القوة والأمانة والعقيدة والثبات على المبادئ لا يتزحزح عنها ولو بأى ثمن وبأى تكاليف ، إنها الرجولة التى نريد أن نقتبسها من حياة هذا البطل ، أن يتحمل كل منا مسئوليته فى مكانه ، يؤديها على الوجه الذى ينبغى ويوفى فيها حق اللَّه ويراعيه ، ولا تكن همته نعيم زائل ومتاع سرعان ما يذهب ، وقد قيل من قبل :

وَغُرْفَةٌ خَالِيَةٌ نَفْسُكَ فِيهَا رَاضِيَهْ　　وَكُوزُ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَهْ

وَمُصْحَفٌ تَدْرُسُهُ مُسْتَنِدًا لِسَارِيَهْ　　مَعَ رَغِيفِ خُبْزٍ يَابِسٍ تَأْكُلُهُ فِى زَاوِيَهْ

خَيْرٌ مِنَ السُّكْنَى فِى ظِلَالِ الْقُصُورِ الْعَالِيَهْ　　مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ تُصْلَى بِنَارٍ حَامِيَهْ

أعاذنا اللَّهُ وثَبَّتَنا على الخَيْرِ وهُداه .

* * * *

[٦] سعد بن أبى وقاص

قال تعالى : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم : ٣٧] قال ابن كثير - رحمه الله - فيما نقله عن بعض السلف : ما أُمر إبراهيم بأمر إلا أتى به على الوجه الذى ينبغى ، أى : أتى به على الوجه الكامل ، وقال تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد : ٢١] . قال الشوكانى وابن كثير : عند الجد يتهربون ، ولكن صاحبنا إذا جد الجد وظهر بشائر الإقدام على الخطوب والحوادث العظيمة ظهر العزم والصدق ومتانة القصد الموجه قِبَلَ رَبِّه سبحانه وتعالى ، وسعد رضى الله عنه يقتبس من نور القرآن لكى يعمل ويقتدى ويسير على ضوء هدايته ، فهو الوفى وصاحب العزم ، أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقال : كنت ثالثًا فى الإسلام ، وأنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله[١] .

وما إن وضعت قدمه على عتبة الإسلام وبدأ يلهج بذكر الشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، حتى ابتلى فيما يحب ، فلقد وقفت له أمه ، وكانت على الشرك تنذره وتحذره وتهدده ، يقول هو : نزلت هذه الآية فىَّ : ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت : ٨] ، قال : كنتُ برًّا بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الدين الذى قد أحدثت ، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّرَ بِى ، فيُقال : يا قاتل أمه . قلت : لا تفعلى يا أمه ، إنى لا أدع دينى هذا لشىء . فَمَكَثَتْ يومًا لا تأكل ولا تشرب ، وليلة ، وأصبحت وقد جُهدت ، فلمَّا رأيتُ ذلك ، قُلتُ : يا أمه ، تعلمين والله لو كان لك مائة نَفْسٍ ، فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا ما تركتُ دينى ، إن شئتِ فكُلِى أو لا تأكلى . فلما رأتْ ذلك أكلتْ[٢] . وفى رواية : كانوا يَشْجُرون فاها بالعصا لكى تأكل.

فانظر ، ألم أقل لك إنه صاحب عزم ماضٍ قوى كالسيف ، ووفى لدينه وفاءً

(١) «صفة الصفوة» (ج١ ص ١٣٣).

(٢) مسلم (١٧٤٨)، والترمذى (٣٢٠٠).

فوق الوصف ؟! إنها والدته ، وقد كان بها بارًّا مُحِبًّا ، لكن الدِّينَ فوق الكل ، فهو يقدم دينه وطاعته وعبادة ربه سبحانه على طاعة غيره وعبادته ، فهو الذى يُقصد ويتوجه إليه سبحانه ، وانظر لأوسمة الشرف التى حازها هذا الأسد القوى ، قال سعد : ما أسلم أَحَدٌ فى اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام ، وإنى لثلث الإسلام(١). فهنيئًا له نظرة الرضا التى أفضاها عليه ربه.

قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ جُودِكَ تَمْلأُ الْأَرْضِ رِيًّا وَنَظْرَةٌ بِعَيْنِ رِضَاكَ تَجْعَلُ الْكَافِرَ وَلِيًّا

فالإيمان نعمة وهبة من المولى سبحانه فاض بها على عبده وجاد به . وهو الوحيد الذى خلع عليه النبى ﷺ لفظ التفدية ، فعن علىٍّ قال : ما سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يفدِى أحدًا بأبويه إلا سعد بن مالك ، فإنى سمعته يقول له فى يوم أُحُد : « ارْمِ سَعْدُ ، فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى »(٢). وقال سعد : نثل لى رسول اللَّه كنانته يوم أُحُد ، وقالَ : « ارْمِ فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى »(٣). وقد قيل : رمى فى الغزوة بألف سهم ، فهذا عزم شديد وتزكية من أحب الخلق لربه من النبى محمد نفسه ﷺ ، إنه وَفِّى لم يكن كالذين تعلموا ثم تطاولوا على غيرهم ، ولم يكن وصفهم كالذى قيل :

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِى

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِى فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِى

وكما يقول ابن القيم فى إغاثة اللَّهفان : لننظر للكلب - أكرمكم اللَّه - صاحبه يعطيه رغيفًا كل يوم ، فإذا منعه ظل على نباحه للغريب - وهذا من وفائه - .

إن سعدًا رجل شهم صاحب رجولة ووفاء ، فهو يقول عن نفسه : إنِّى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل اللَّه عز وجل ، ولقد رأيتنا نغزو مع رسول اللَّه ﷺ وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة ، وهذا السمر حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط ، ثم أصبحت بنو سعد يعزرونى على الدين ، لقد خبت إذن وضل عملى(٣).

---

(١) البخارى (٣٧٢٦).

(٢) البخارى (٣٧٢٥) ، وغيره واللفظ لأحمد .

(٣) البخارى .

إنه لديه قوة على التحمل ومسارعة للخيرات والفضائل ، إنه سعد ، أليس هو خال رسول اللَّه ﷺ ، فهو القائل : « هَذَا خَالِى - وَهُوَ يُشِيرُ لِسَعْدٍ - فَلْيُرِنِى امْرؤٌ خَالَهُ »[١] . فهذه أسرة طيبة الأصل والفرع فيها الخير والطاعة والبر والجهاد ، وهل تعلم أنه من العشرة المبشرين بالجنة رضى اللَّه عنه ؟ فعن سعيد بن زيد : لَمَّا سُبَّ عَلِىٌّ قال : عشرة فى الجنة ، وعد منهم سعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه ، ثم قال : واللَّه لمشهد شهده رجل مع رسول اللَّه ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عُمِّرَ مَا عَمَّرَ نُوحٌ[٢] . فبشراك الغنية ، إنه وهو يسير على الأرض بين أصحاب النبى ﷺ رضى اللَّه عنهم يبشر بالجنة ، ولا يتكاسل عن عمل ، بل يسعى بكل جهده برغم كثرة بشريات النبى ﷺ له فى هذا الأمر ، ففى حديث آخر عن سعيد بن زيد قال : أشهد على رسول اللَّه أنا كنا على حراء أو أحد ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اثْبُتْ حِرَاءَ أَوْ أُحُدَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِىٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » . فسمى النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعدًا وعبد الرحمن وسمى سعيد نفسه[٣] .

وما زالت الشهادات الفائزة بأعلى الجوائز تنهال على سعد بن أبى وقاص ذلكم العَلَمُ ، فعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : أَرِقَ النَّبِىُّ ﷺ ذات ليلة ، فقال : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِى يَحْرُسُنِى اللَّيْلَةَ » . قالت : فسمعنا صوت السلاح ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ هَذَا ؟ » قال سعد : أنا يا رسول اللَّه ، جئتُ أَحْرُسُكَ ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ حتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ[٤] .

فهذه علاقة رجل يريد حرساة قائده ﷺ ، فهو يقوم لينام النبى ﷺ وتسهر عيناه على رعاية المصطفى ﷺ ولا يجد غضاضة فهو الموسوم بالصلاح ، وهو الموصوف بأنه من أهل الجنة ، وهو المفدى بالأب والأم ، ولم تكن لغيره ، فهل تحصَّل أحدنا على شارة حسنة كهذه ؟ فاللَّهم أَلْحِقْنَا بِركابِهِمْ فى الجَنَّةِ ، إن لم نكن لحقنا بركابهم فى الدنيا .

---

(١) الترمذى وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» (٣٧٥٢).

(٢) أبو داود (٤٦٥٠)، وابن ماجة فى الفضائل وصححه الألبانى.

(٣) تقدم تخريجه مثل السابق، أبو داود.

(٤) البخارى (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذى (٣٧٧٧).

ثم لتنظر لأمانى هذا الصحابى : يقول : إن عبد اللَّه بن جحش قال يوم أُحُد : ألا تأتى ندعو اللَّه ، فخلوا فى ناحية ، فدعا سعد فقال : يا رب إذا لقينا العدو غدًا فَلَقِّنِى رجلًا شديدًا بأسُه ، شديدًا حرده ، أقاتله ويقاتلنى ثم ارزقنى الظفر عليه ، حتى أقتله وآخذ سلبه . فَأَمَّنَ عبدُ اللَّهِ ، ثم قال : اللَّهُمَّ ارزقنى غدًا رجلًا شديدًا بأسُهُ ، شديدًا حردُهُ ، فأقاتله ويقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ، فإذا لقيتك غدًا قلت : يا عبد الله فيم جُدِع أَنْفُكَ وأُذُناكَ ؟ فأقول : فيك وفى رسولك ، فتقول : صدقت . قال سعد : كانت دعوته خيرًا من دعوتى ، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلق فى خيط .

فهذه أمنية سعد : النصر للدين والعز والتمكين ، وأمنية عبد اللَّه لُقْيَا رَبَّهُ والشهادة ، والناس يختلفون فى عبادتهم وأمانيهم ، كما يختلفون فى حبهم للطعام والشراب ، ولكن هذا مؤيد من قبل ربه ، فهو من مجابى الدعوة ، كما عده ابن أبى الدنيا فى كتابه « مجابى الدعوة » فعن جابر بن سمرة قال : شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر ، فقالوا : إنه لا يحسن أن يصلى ، فقال سعد : أما أنا فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول اللَّه ﷺ صلاتى فى العشى لا أخرم منها أركد فى الأوليين (أطيل) وأحذف فى الأخريين ، فقال عمر : ذاك الظن بك يا أبا إسحاق ، فبعث رجالًا يسألون عنه بالكوفة ، فكانوا لا يأتون مسجدًا من مساجد الكوفة إلا قالوا خيرًا ، حتى أَتَوْا مَسْجدًا لبنى عبس ، فقال رجل يقال له أبو سعدة : أما إذا نشدتمونا باللَّه فإنه كان لا يعدل فى القضية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يسير بالسرية . فقال سعد : اللَّهم إن كان كذابًا فأعم بصره ، وأطل عُمْرَه وعَرِّضْه للفِتَن . فقال عبد الملك : فأنا رأيتُه بعدُ يتعرض للإماء فى السكك ، فإذا سئل كيف أنت ؟ يقول : كبير فقير مفتون أصابتنى دعوة سعد[1] .

ودعاء سعد رضى اللَّه عنه فى خانة الإجابة ، وهذا إن دل فهو يدل على منزلته العالية عند ربه ، واستجابته سبحانه لدعاء سعد فى الحال من أعظم ما يكون ، حتى إن أصحاب النبى ﷺ كانوا يخشون سعدًا حتى لا يدعو عليهم ، وهو لا

---

(١) متفق عليه.

يظلمهم رضى اللَّه عنه ، ولا يتخذها ذريعة للتطاول بها على الناس ، فهو الذى يعمل بحديث النبى ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ التَّقِيَّ » . كما سيرد عنه فى واقعة الفتنة.

ثم لنبحث عن دور له مشهود له عند المسلمين ، وعند أتباعه ، فنجد من أعظم مواقفه سموًّا ورفعة وعلوًّا موقعة القادسية مع الفرس ، فهذه القبائل توافدت بقوادها على المدينة فلما تكامل عددهم خرج بهم عمر فى أول المحرم سنة ١٤ هـ ، فعسكر فى حرار على ثلاثة أميال من المدينة فى طريق العراق ، والعامة تقول : سِر وسر بنا معك ، فدخل معهم فى رأيهم ، وكره أن يدعهم حتى يخرج منه فى رفق وقد أفلح ذوو الرأى فى حمل عمر على الإقامة فى المدينة على أن يبعث رجلًا من أصحاب النبى ﷺ ويمده بالجنود ، وقد استقر رأيهم على سعد (الملقب بالأسد فى براثنه) قيادة جيش المسلمين الذى بلغ بضعة وثلاثين ألفًا فيهم كثير من صحابة رسول اللَّه ﷺ ، ولم يدع عمر رئيسًا ولا ذا رأى ولا ذا شرف ، ولا ذا سلطة ، ولا خطيبًا ، ولا شاعرًا إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم[١] .

وقد أوصى عمر سعدًا عندما أمرَّه على حرب العراق ، فقال : يا سعد بنى وهيب لا يغرنك من اللَّه أن قيل : خال رسول اللَّه ، وصاحب رسول اللَّه ، فإن اللَّه عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، فإن اللَّه ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات اللَّه سواء ، اللَّه ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند اللَّه بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا ، فالزمه ، فإنه الأمر.

توجه سعد إلى العراق؛ ليقود أكبر جيش توجه إلى الفرس ، ولم يسعده الحظ بلقاء المثنى الذى توفى متأثرًا بجراحة أصابته يوم الجسر ، ولكنه قدم إلى سعد قبل وفاته بوصية بعثها مع أخيه المعنى يقول فيها : قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر المسلمون عليهم فلهم ما رواءهم ، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم

(١) الطبرى (ج٣ ص٤٨٧).

وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللَّه الكرة عليهم[١].

نزل سعد بالقادسية بعد أن أمَّر أفراد الأجناد وأمَّر على الرايات رجالًا من أهل السابقة، وجعل على كل عشرة أميرًا، وعَيَّنَ عمر للأطبة، وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن الباهلى ذا النور، وجعل إليه الأفياض وقسمة الفىء، وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى، وكان عمر يعلم بشكل تحرك للجيش كأنه شاهد معهم، وأقام سعد بالقادسية شهرًا يرسل طلائعه للإغارة على أهل السواد، وبث الغارات بين كسكر والأنبار، فحققوا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا، كما بعث عيونًا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا؛ ليعلموا له خبر أهل فارس، فرجعوا إليه بنزول رستم بساباط[٢].

بعث سعد بأمر عمر رجالًا لهم رأى ونظر إلى يزدجرد (ملك الفرس)، فأذن لهم بعد أن جمع لهم وجوه دولته، وقال لهم: ما جاء بكم، وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟

أمن أجل أن تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فلا يغرنكم منا.. وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم، فأجابه النعمان بن مقرن مبينًا بعثة النبى ﷺ وتاريخ الدعوة الإسلامية وأهدافها، وموقف العرب منها، وانطوائهم تحت لوائهم، وأن الرسول ﷺ أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حَسَّنَ الْحَسَنَ وقَبَّح الْقَبِيحَ كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللَّه وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم، فغضب يزدجرد وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شىء لكم عندى، ثم قال: ائتونى بوقر من تراب، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب

---

(١) الطبرى (ج٣ ص٤٩٠).

(٢) الطبرى (ج٣ ص٤٩٥).

المدائن ، وهددهم بإرسال رستم إليهم؛ ليدفنهم فى خندق القادسية[١] .

وقد ترددت الرسل أيضًا بين سعد ورستم رغبة فى الصلح ، وكان المغيرة بن شعبة هو المتحدث بلسان وفد المسلمين ، ولكن رستم وقومه قالوا : لا صلح بيننا وبينكم . فقال المغيرة : تعبرون إلينا أو نعبر إليكم ، فقال رستم : بل نعبر إليكم . فعبر الفرات ، وعند ابن كثير فى البداية والنهاية أنه أرسل ربعى بن عامر أولًا ، ثم أرسل حذيفة بن محصن ، ثم المغيرة بن شعبة[٢] .

وقد كان رستم يريد أن يؤجل ويتباطأ فى بدء المعركة؛ لأنه رأى رؤى كثير تشير إلى أنه مهزوم ، وكان سعد رضى اللَّه عنه قد أصيب بعرق النسا يؤمئذ ودمامل فى المقعدة ، وأنه خطب الناس وتلا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء : ١٠٥] وصلى بالناس الظهر ، ثم كبر أربعًا ، وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا باللَّه ، فى طردهم إياهم ، وقتلهم لهم ، وقعودهم لهم كل مرصد ، وحصرهم لبعضهم فى بعض الأماكن حتى أكلوا الكلاب والسنانير - القطط -[٣] .

ودارت معركة قاسية بين الفريقين استمرت أربعة أيام ، ورجحت فى اليوم كفة جيش الفرس بسبب ذعر خيول المسلمين من فيلة الفرس ، ويسمى هذا اليوم «يوم أرمات»؛ لاختلاط أمرهم ، وفى اليوم التالى ابتدئ بدفن القتلى ، ثم حمل الجرحى إلى من يقوم بأمرهم وتمريضهم من النساء ، وقد وصل إلى جيش المسلمين مدد من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فشد ذلك من أزر المسلمين ، وقد ابتكر المسلمون حيلة أخافوا بها خيول الفرس بأن برقعوا الإبل حتى صار لها شكل غريب[٤] .

---

(١) الطبرى (ج٣ ص ٤٩٥) .

(٢) معركة القادسية (ج٧ ص ٣٠ - ٣٩) ، «البداية والنهاية» .

(٣) «البداية والنهاية» (ج٧ ص ٣٣) .

(٤) «تاريخ الخلفاء» للدكتور/ محمد محمد زيتون، ومحمد جبر أبو سعدة.

ومضى اليوم الثانى والثالث والرابع والحرب على أشدها ، وسعد لا يستطيع الركوب ، وإنما هو فى قصر متكئ على صدره فوق وسادة ، وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره ، وقد جعل أمر الحرب إلى خال بن عرفطة . . وقد أباد الصحابة الفيلة ومن عليها ، وقلعوا عيونها ، وقتل المسلسلون بالسلاسل وكانوا ثلاثين ألفًا غير من قتل فى المعركة عشرة آلاف(١) . وسعد جالس فى رأس القصر ينظر فى مصالح المسلمين ، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته ، ولو فر الناس لأخذته الفرس قبضًا باليد لا يمتنع منهم وعنده امرأته سلمى بنت حفص(٢) .

ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم مما فيه من القروح فى فخذيه - والدمامل - فى أليتيه ، فعذره الناس ، وقتل رستمَ هلالُ بن علقمة احتز رأسه ، ففر الفرس ، وكتب سعد إلى عمر يقول : أما بعد ، فإن اللَّه نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يَرَ الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم اللَّه بذلك ، بل سلبهموها ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ ، وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم اللَّه بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دَوِى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا وكان عمر قلقًا يخرج كل يوم إلى طريق العراق يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ، وذات يوم لقى البشير فسأله عمر من أين ؟ فأخبره ، قال : يا عبد اللَّه حدثنى ، قال : هزم اللَّه العدو وعمر يتحدث معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل : هلا أخبرتنى - رحمك اللَّه - أنك أمير المؤمنين . وعمر يقول : لا عليك يا أخى هات ما عندك . فسلمه كِتابًا من سعد بالنصر وبما أفاء اللَّه على المسلمين(٣) ، فجزى اللَّه خيرًا وبشر سعدًا

---

(١) «البداية والنهاية» (ج٧ ص٣٥) .

(٢) «البداية والنهاية» (ج٧ ص٣٦) .

(٣) الطبرى (ج٤/ ص٥٨٣) ، و«البداية والنهاية» (ج٧/ ص ٣٧، ٣٨) .

بالخير وبورك لسعد همته ، فلو وضع الإنسان فى مثل هذا الموقف وهذه المسئولية التى تنوء بها الجبال لكان ما كان ، ولقد كانت موقعة القادسية من المواقع التى قضت على الروح المعنوية والقتالية عند الفرس ومكنت المسلمين بقيادة سعد من مواصلة الانتصارات فى بابل (وبهر سير) والمدائن العليا ، وتم للمسلمين فتح العراق على يد البطل المغوار سعد بن أبى وقاص ، فلعلك تلاحظ بقوة قوة عزم سعد - رضى اللَّه عنه - ورباطة جأشه ، وقوة شكيمته فى الرد على أهل الباطل ، وبكل قوة ، والتنكيل بهم ، وتأييد اللَّه له ومع كل هذا لما جاءه ابنه عامر فقال : أَىْ بُنَيَّ ، أَفِى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسًا ؟ لا واللَّه حتى أُعْطَى سَيْفًا إن ضربت به مسلمًا نبا عنه ، وإن ضربت كافرًا قتله ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ التَّقِيَّ »[1] . ورفض الدخول فى الفتنة القائمة بين الصحابة رضى اللَّه عنهم ، وآثر اعتزال الطائفتين رضى اللَّه عنهم جميعًا ، وهو يقول : واللَّه لئن كان ذنبًا إنه لصغير مغفور ، ولئن كان حسنًا إنه لعظيم مشكور . فمع قوته وعزمه ووفائه لدينه يأبى الاعتداء على مسلم ، ولا الدخول فى غمار ما حدث بين أصحاب النبى ﷺ وهو يترضى عليهم ، بل كان يغضب أشد الغضب لو رأى من يسبهم أو يشتمهم ، ويبين لهم فضل أصحاب النبى ﷺ ومزاياهم[2] ، وفى الوجه المقابل كان يتمتع بشفقة كبيرة ورحمة على أسرته ، فعن عامر بن سعد عن أبيه قال : مرضت عام الفتح مرضًا شديدًا ، أشفيت منه ، فأتانى رسول اللَّه ﷺ يعودنى ، فقلت : يا رسول اللَّه ، إنى لى مالًا كثيرًا ، وليس يرثنى إلا ابنة أفأوصى بمالى كله ؟ قال : « لا » . قلت : فالشطر ، قال : « لا » . قلت : فالثلث : قال : « الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَتْرُكْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، لَعَلَّكَ تُؤَخَّرُ عَلَى جَمِيعِ أَصْحَابِكَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ فِيهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ » . قلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، إِنِّى أَرْهَبُ أَنْ أَمُوتَ بِأَرْضٍ

---

(١) «السير» (ج٣/ ص٧٠).

(٢) قال الذهبى فى «السير» : «اعتزل سعد الفتنة فلا حضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم ولقد كان أهلًا للإمامة كبير الشأن» (ج٣/ ص٧١).

هَاجَرْتُ مِنْهَا ، قالَ : «لَعَلَّكَ أَنْ تَبْقَى حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِى هِجْرَتَهُمْ ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»[١].

ولقد صدق كلام النبى ﷺ ، فقد شفاه اللَّه ورزق بأولاد كثيرين من بنات وبنين وعمَّر طويلًا ، وخدم الإسلام على أكمل صورة ، وواجه الكفار ، ونكل بهم ، فاللَّهم بلغنا منازل الشرفاء.

وهنا نأتى للحقبة الأخيرة فى حياة كل شخص مهما علت منزلته أو هبطت ، فها هو ابنه مصعب يقول وهو واضع رأس أبيه سعد بن أبى وقاص فى حجره وهو يقضى فيبكى مصعب ، فيرفع رأسه إليه ويقول : أى بنى ما يبكيك ؟ قلت : لمكانك وما أرى بك ، قال : لا تبك ، فإن اللَّه لا يعذبنى أبدًا ، وإنى من أهل الجنة[٢].

قال الذهبى : صدق واللَّه ، فهنيئًا له[٣]. إيه واللَّه ، لقد عاش سعد فى أسباب السعادة وعوامل النجاة مع كتاب اللَّه وسنة النبى ﷺ ، وفى حراسة المصطفى وقيادة ركب الانتصار وحراسة الفضيلة ، ودعاء النبى ﷺ له تزكيته وحرص عمر عليه ونصيحته إياه ، إنه يعيش وسط مجتمع الفضائل ، مجتمع امتلأ عن آخره بالخير والطاعة ، فلو وجدوا منكرًا أنكروه ، ولو معروفًا كثروه ، ولو شخصًا يائسًا بشَّروه ، وإذا كان فقيرًا واسوه ، وإذا كان ضالًّا نصحوه ، وأخذوا بيده ، فهل يضل أحد بعد إذن اللَّه فى مجتمع كهذا ، فعلينا إذا أردنا أن نعيش فى جو كهذا ، فلنأخذ بعزم سعد ، ونسأل اللَّه المعونة ، فهو قوى قادر وهو بالفضل والحمد جدير ، وبالاستجابة حرى ، لكن علينا أن نلزم الوفاء ، فخير اللَّه إلى العباد نازل ، فلنشكره على عطاياه ، ولنحمده على ما ينزل علينا ، ونقابل النعم : ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ : ١٣] و﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠].

---

(١) البخارى (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذى(٢١٢٣)، والنسائى (٦/ ٢٤١، ٢٤٢)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٢٩٧).

(٢) «السير»، وابن سعد فى «الطبقات» (٢/ ٧٨).

(٣) «السير» (ج٣/ ص٧١).

فالعمل العمل ، والجد الجد ، والوفاء الوفاء ، والعزم العزم ، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَه ، ونسأله المعونة والتوفيق والسداد. وأخيرًا سعدُ :

بَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحْ مِثْلُكَ أَدَّى مَا لَدَيْهِ وَمَنَحْ
وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَلَهُ مَا قَدْ كَدَحْ طُولَ اللَّيَالِي وَعَلَيْهِ مَا اجْتَرَحْ

* * * *

[٧] عبد الرحمن بن عوف رضى اللَّه عنه

إنه كما وصفه الذهبى - رحمه اللَّه - أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورى ، وأحد السابقين البدريين القرشى الزهرى ، وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام ، له عدة أحاديث(١) .

إنه التاجر الصدوق والغنى الشاكر ، إنه عبد الرحمن بن عوف ، الصحابى الجليل رضى اللَّه عنه وأرضاه ، إنه من الصحابة الذين أسلموا على يد الرجل الفاضل الصديق أبى بكر رضى اللَّه عنه.

إنه كان من الذين يترددون على دار الأرقم بن أبى الأرقم التى تربى فيها المسلمون الأوائل رضى اللَّه عنهم ، على العقيدة وقيام الليل ، وعلى الإخاء والمحبة والود.

لقد تربى عبد الرحمن بن عوف رضى اللَّه عنه على الإنصات بأُذن واعية لكلام النبى ﷺ ، فعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال : جلسنا مع عمر رضى اللَّه عنه فقال : هل سمعت عن رسول اللَّه ﷺ شيئًا أمر به المسلم إذا سها فى صلاته كيف يصنع ؟ فقلت : لا واللَّه ، أو ما سمعت أنت يا أمير المؤمنين من رسول اللَّه ﷺ فى ذلك شيئًا ؟ فقال : لا واللَّه . فبينما نحن فى ذلك أتى عبد الرحمن بن عوف ، فقال : فيم أنتما ؟ فقال عمر : سألته فأخبره ، فقال له عبد الرحمن : لكنى قد سمعت رسول اللَّه ﷺ يأمر فى ذلك . فقال له عمر : فأنت عندنا عدل ، فماذا سمعت؟ قال : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « إِذَا سَهَا أَحَدُكُمْ فِى صَلَاتِهِ حَتَّى لَا يَدْرِى أَزَادَ أَمْ نَقَصَ ، فَإِنْ كَانَ شَكَّ فِى الْوَاحِدَة والثِّنْتَيْنِ فَلْيَجْعَلْهَا وَاحِدَةً ، وَإِذَا شَكَّ فِى الثِّنْتَيْنِ أَوِ الثَّلَاثَةِ ، فَلْيَجْعَلْهَا ثِنْتَيْنِ ، وَإِذَا شَكَّ فِى الثَّلَاثِ وَالْأَرْبَعِ فَلْيَجْعَلْهَا ثَلَاثًا حَتَّى يَكُونَ الْوَهْمُ فِى الزِّيَادَةِ ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ ، ثُمَّ يُسَلِّمْ »(٢) .

---

(١) «السير» للذهبى (ج٣/ ص٣٩).

(٢) الترمذى (٣٩٨)، وابن ماجه (١٢٠٩)، وأحمد (١/ ١٩٠)، وصححه الترمذى.

ولقد خلع عليه النبى ﷺ لقبًا من أعظم ألقاب الدنيا شرفًا ، لا يبارى عليه إلا القليل ، إنه لقب أحد العشرة المبشرين بالجنة ، فعن سعيد بن زيد رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «أَبُو بَكْرٍ فِى الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِى الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِى الْجَنَّةِ ، وَعَلِىٌّ فِى الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِى الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِى الْجَنَّةِ ، وعَبْدُ الرَّحْمنِ فِى الْجَنَّةِ ، وسَعْدُ بنُ مَالِكٍ فِى الْجَنَّةِ. . . .»[1]. ولم ينالوا رضى اللَّه عنهم ومنه عبد الرحمن بن عوف هذه المنزلة من فراغ ، فيا عبد اللَّه :

أَأَلْهَتْكَ اللَّذَائِذُ والأَمَانِى عَنِ الْبِيضِ الْأَوَانِسِ فِى الْجِنَانِ
تَعِيشُ مُخَلَّدًا لَا مَوْتَ فِيهَا وَتَلْهُو فِى الْجِنَانِ مَعَ الْحِسَانِ
تَنَبَّهْ مِنْ مَنَامِكَ إِنَّ خَيْرًا مِنَ النَّوْمِ التَّهَجُّدُ بِالْقُرَانِ

وهؤلاء قيل فيهم.

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِى الدُّنْيا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودُ أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخَرْسٌ بِالنَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ[2]

وهذا النبى ﷺ يشهد له مرة أخرى وهو على جبل حراء ، فعن سعيد بن زيد أيضًا قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «اثْبُتْ حِرَاءُ - أَوْ أُحُدُ - فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِىٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ» . فسمى النبى ﷺ وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليًا ، وطلحة ، والزبير ، وسعدًا وعبد الرحمن ، وسمى سعيد نفسه.

إن تبشير عبد الرحمن بالجنة يجعله فى حركة دءوب فى السعى لهذه المنزلة ، والمحافظة على تلك المكانة السامية ، إنها الجنة ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إنها النعيم الذى أعده اللَّه لعباده الصالحين ،

---

(١) أبو داود (٤٦٥٠)، وابن ماجه (١٣٣).

(٢) «ديوان ابن المبارك» (ص٥٣).

فيها : ينظر الصالحون إلى وجه ربهم سبحانه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] فلهم الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه اللَّه تبارك وتعالى.

إن صاحبنا هذا كان تاريخه كلُّه منشغلًا بطاعة اللَّه حتى وهو فى سوقه وصلاته ، وما أحرانا بأخذ العظة والفكرة دائمًا من هذا.

لِلَّهِ دَرُّ رِجَالٍ وَاصَلُوا السَّهَرَ ... وَاسْتَعْذَبُوا الْوَجْدَ وَالتَّبْرِيحَ والْفِكَرَا
فَهُمْ نُجُومُ الْهُدَى وَاللَّيْلُ يَعْرِفُهُمْ ... إِذَا نَظَرْتَهُمْ هُمْ سَادَةٌ بَرَرَا
كُلٌّ غَدَا قَلْبُهُ بِاللَّهِ مُشْتَغِلًا ... عَمَّنْ سِوَاهُ وَلِلَّذَّاتِ قَدْ هَجَرَا
يُمْسِى وَيُصْبِحُ فِى وَجْدٍ وَفِى قَلَقٍ ... مِمَّا جَنَاهُ بِالْعِصْيَانِ مُنْذَعِرَا
يَقُولُ : يَا سَيِّدِى قَدْ جِئْتُ مُعْتَرِفًا ... بِالذَّنْبِ فَاغْفِرْ لِى يَا خَيْرَ مَنْ غَفَرَا
حَمَلْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا لَا أُطِيقُ لَهُ ... وَلَمْ أُطِعْ سَيِّدِى فِى كُلِّ مَا أَمَرَا
عَصَيْتُهُ وَهْوَ يُرْخِى سَتْرَهُ كَرَمًا ... يَا طَالَمَا قَدْ عَفَا عَنِّى وَقَدْ سَتَرَا
يَا طَالَمَا كَانَ لِى فِى كُلِّ نَائِبَةٍ ... إِذَا اسْتَعَنْتُ بِهِ فِى كُرْبَةٍ نَصَرَا

وقد وُلد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنين ، ولما دخل الإسلام وكان من السابقين رضى اللَّه عنه ، ولما اشتد الإيذاء بالمسلمين من قِبَلِ المشركين أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ، الهجرة الأولى ، ولما عادوا على إثر شائعة وواجههم المشركون بتعذيب أشد ، رجعوا إلى الهجرة للحبشة مرة ثانية ، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة ، وهناك بدأ الصحابى التاجر رضى اللَّه عنه حياته ، فقد آخى النبى ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال له سعد : اختر أفضل زوجتى ، وخذ نصف مالى ، فقال له عبد الرحمن : بارك اللَّه لك ، دلنى على السوق[١].

إنه من أيامه الأولى يريد أن يعتمد على نفسه حتى تاجر وهو يتميز بالصدق فى

(١) لقد ألف بعض المشايخ بحثًا فى كلمة: دلونى على السوق . لسلمان العودة، وهى رسالة لطيفة وجميلة.

تجارته ، وقد قال النبى ﷺ : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ » . وخصّ التجار بالصدق لقلته فيهم ، مع العلم أنَّ تجارة الشخص لا تنمو أو يُبارِك اللَّه فيها إلا بالصدق ، وهذا تميز به عبد الرحمن حتى كثر ماله.

وهنا ننبه على حديث مشهور فى ترجمة عبد الرحمن بن عوف وهو ضعيف ، فعن ثابت البنانى عن أنس قال : بينما عائشة رضى اللَّه عنها فى بيتها إذ سمعت صوتًا رجت منه المدينة ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف من الشام ، وكانت سبعمائة راحلة . فقالت عائشة : أما إنى سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةِ حَبْوًا » . فبلغ ذلك عبد الرحمن فأتاها فسألها عما بلغه ، فحدثته ، قال : فإنى أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها فى سبيل اللَّه عز وجل . وفى رواية قال : إن استطعت لأدخلنها قائمًا[(١)].

ولقد شارك فى غزوة بدر رضى اللَّه عنه وحصل على وَسَامِ شَرَفٍ عَظِيمٍ ، الذين قال فيهم النبى ﷺ : «اعملوا ما شئتم» . وهو من أهل آية : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨].

ولم يصلِّ النبى ﷺ خلف أحد من أصحابه إلا اثنين : أبى بكر ، وعبد الرحمن ابن عوف ،فعن عمرو الثقفى قال : كنا مع المغيرة بن شعبة فسئل هل أمَّ النبى ﷺ أحد من هذه الأمة غير أبى بكر رضى اللَّه عنه ، فقال : نعم . فذكر أن النبى ﷺ توضأ ومسح على خفيه وعمامته ، وأنه صلى خلف عبد الرحمن بن عوف وأنا معه

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٥)، وأورده ابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢/ ١٣)، وقال أحمد: هذا الحديث كذب منكر، وأورده فى «تلبيس إبليس» (ص٢٢٤) وقال أعوذ بالله من أن يحبو عبد الرحمن فى القيام، أفترى من يسبق إذا حبا عبد الرحمن بن عوف هو من العشرة المشهود لهم بالجنة ومن أهل بدر المغفور لهم ومن اصحاب الشورى ؟! ثم الحديث يرويه عمارة بن زاذان ، قال البخارى: ربما اضطرب حديثه . وقال أحمد : يروى عن أنس أحاديث مناكير . وقال أبو حاتم: لا يحتج به . وقال الدارقطنى : ضعيف (تحقيق أبى علىّ مسلم الحسينى).

ركعة من الصبح ، وقضينا الركعة التى سُبقنا[١] . وفى رواية : أن النبى ﷺ انتهى إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يصلى بالناس ، فأراد عبد الرحمن أن يتأخر ، فأومأ إليه أنْ مَكَانك ، فصلى ، وصلى رسول اللَّه ﷺ بصلاة عبد الرحمن.

ومع كثرة ماله ، كان كثير البذل فى سبيل اللَّه ، فعن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة : ٧٩] قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله أربعة آلاف دينار ، فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء. وعن الزهرى قال : تصدق ابن عوف على عهد رسول اللَّه ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس فى سبيل اللَّه ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل اللَّه ، وكان عامة ماله من التجارة[٢].

وهؤلاء المنافقون لا يمسكون ألسنتهم بل يطلقونها فى الناس بأى نقيصة.

تَحَفَّظْ لِسَانَكَ لَيْسَ شَىْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ سجْنٍ مِنْ لِسَانِ
وَكُنْ لِلصَّمْتِ مُلْتَزِمًا إِذَا مَا أَرَدْتَ سَلَامَةً فِى ذَا الزَّمَانِ

ولنعم ما قال ابن المبارك رحمه اللَّه : إن اللسان ترجمان الشعور لا يصدر إلا عما فى القلب ، فإذا كان مستقيمًا على طريق الحق دل على أن صاحبه من نبع الإيمان ارتوى ، وعلى هديه كانت خطاه.

وإذا جاوز الحد منفلتًا من كل مقياس وضبط دل على فسادِ الطَّوِيَّةِ وخبث الشخصية ، وأدى بصاحبه إلى الهلاك ، وأوقعه فى مهاوى الإثم ، ومستنقع الفحش.

وللَّه در الشافعى رحمه اللَّه حين قال :

قالُوا : سَكَتَّ وَقَدْ خُوصِمْت قلت لهم إن الجواب لباب لشر مفتاح
والصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ وَفِيهِ أَيْضًا لِصَوْنِ الْعِرْضِ إِصْلَاحُ

---

(١) أحمد (٤/ ٢٤٤)، ومسلم (٢٧٤ ، ٨١)، وأبو داود (١٥٠)، والترمذى (١٠٠)، والنسائى (١/ ٧٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك فى كتابه «الزهد».

أَمَا تَرَى الْأُسْدَ تُخْشَى وَهْيَ صَامِتَةٌ والْكَلْبُ يَخْشَى لَعَمْرِى وَهْوَ نَبَّاحُ[(١)]

وقال :

وَجَدْتُ سُكُوتِى مَتْجَرًا فَلَزِمْتُهُ إِذَا لَمْ أَجِدْ رِبْحًا فَلَسْتُ بِخَاسِرِ

وما الصَّمْتُ إِلَّا فِى الرِّجَالِ مُتَاجِرٌ وتَاجِرُهُ يَعْلُو عَلَى كُلِّ تَاجِرِ

وعلى هذا الخُلُقِ الفاضل من الصمت وعدم التعدى على الغير نرى أصحاب النبى ﷺ ، فعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال : كان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف شىءٌ فقال رسول اللَّه ﷺ : « دَعُوا لِى أَصْحَابِى - أَوْ أُصَيْحَابِى - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحِدٍ ذَهَبًا لَمْ يُدْرِكْ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ »[(٢)].

فخالد رضى اللَّه عنه صحابى ، وعبد الرحمن سابق عليه فى الإسلام ، والنبى ﷺ يوجه له هذه الكلمات القوية حتى لا يحدث مثل هذا مرة أخرى.

ولقد كان هذا الغنى الشاكر رضى اللَّه عنه يتلمس نصائح النبى ﷺ لكى يقوم بتنفيذها على أكمل وجه وأتمه ، فقد سمع يومًا وصية النبى ﷺ عن أبى هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِى » . فأوصى لهن عبد الرحمن بحديقة قُومت بأربعمائة ألف[(٣)].

وعن أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن باع أرضًا له من عثمان بأربعين ألف دينار فقسمه فى فقراء بنى زهرة ، وفى المهاجرين ، وأمهات المؤمنين ، قال المسور : فأتيت عائشة بنصيبها ، فقالت : من أرسل بهذا ؟ قلت : عبد الرحمن . قالت : أما إنى سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ بَعْدِى إِلَّا الصَّابِرُونَ » . سقى اللَّه ابن عوف من سلسبيل الجَنَّةِ[(٤)].

---

(١) «ديوان الشافعى» (ص ٤٣)، ويخشى : يزجر ويرمى بالحجارة.

(٢) مسلم (٢٥٤٠)، والبخارى (٣٦٧٣).

(٣) الترمذى (٣٧٧١)، وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

(٤) الترمذى (٣٣٧٠)، وزاد: «وقد كان وصل أزواج النبى بمال بأربعين ألفًا» . وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٣١٢)، من حديث المسور.

قال الذهبى رحمه اللَّه[١] : ومن أفضل الأعمال : أعمال عبد الرحمن ، عزله نفسه من الأمر وقت الشورى ، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد ، فنهض فى ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان ، ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه ، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص.

وهذا هو موقفه ، ففى أخريات حياة عمر رضى اللَّه عنه جعل أمر الخلافة فى ستة نفر الذين مات عنهم الرسول ﷺ وهو عنهم راض ، وهم من العشرة المبشرين بالجنة ، ووصى عمر بأن يختاروا واحدًا منهم ، وتحرج عمر أن يجعلها لواحد منهم على التعيين ، وقال : لا أتحمل أمرهم حيًا وميتًا ، وإن يرد اللَّه بكم خيرًا يجمعكم على خير هؤلاء ، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ . وقال لأهل الشورى : يحضركم عبد اللَّه - يعنى ابنه - وليس له من الأمر من شىء - يعنى يحضر الشورى ، ويشير بالنصح ولا يُولى شيئًا ، وأوصى أن يصلى بالناس (صهيب الرومى) ثلاثة أيام حتى تنقضى الشورى ، ووكل بهم خمسين رجلًا من المسلمين ، وجعل عليهم مستحثًّا أبا طلحة الأنصارى ، والمقداد بن الأسود ، والكندى ، وقد قال عمر بن الخطاب : ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلىٍّ أحدًا ، إنهما كانا يكتبان الوحى بين يدى رسول اللَّه ﷺ بما ينزل به جبريل ، وبويع عثمان بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال.

يروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف ليجتهد للمسلمين فى أفضلهم ليوليه ، فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم ، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان حتى إنه قال لعلى : أرأيت إن لم أولك بمن تشير علىَّ ؟ قال : بعثمان ، وقال لعثمان : أرأيت إن لم أولك بمن تشير علىَّ ؟ قال : بعلى بن أبى طالب ، ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضى اللَّه عنه يستشير الناس فيهما ، ويجمع رأى المسلمين برأى رءوس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا ، مثنى وفرادى ، ومجتمعين سرًّا وجهرًا ، فوجد الناس لا يعدلون بعثمان ، وفى أثناء هذه الليالى مكث عبد الرحمن لا ينام ولا يغتمض بكثير نوم إلا

(١) «السير» (ج٣/ ص٥٠).

صلاة ودعاء واستخارة ، ثم ذهب إلى المسجد ، ودعا عثمان وعليّ والناس مجتمعون ، فأخذ بيد عليّ وقال : أبايعك على كتاب اللَّه وسنة رسوله والخليفتين بعده . قال : ما استطعتُ . ومد يده لعثمان وقال : أبايعك على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وسيرة أبى بكر وعمر . فقال : نعم . فبايعه ، ثم اجتمع الناس على عثمان ، فبايعوا ، وتم ذلك فى يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وهكذا تمت بيعة عثمان ورضيها المسلمون جميعًا ؛ لأنها قامت على النهج الإسلامى الصحيح ، وعلى الشورى التى أقرها الإسلام وأرسى قواعدها[1] .

ولقد شهد المشاهد كلها ، وثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم أُحُدٍ ، وصلَّى برسول اللَّه ﷺ فى غزوة تبوك[2] ، وأصيب يوم أُحد ، فهتم وجرح عشرين جراحة ، أو أكثر ، أصابه بعضها فى رجله فعرج. ولقد كان رضى اللَّه عنه يكره أمر الإمارة كرهًا شديدًا ، فعن المسور : لما ولى عبد الرحمن بن عوف الشورى كان أحب الناس إلىَّ أن يليهن فإن ترك فسعد ، فلحقنى عمرو بن العاص فقال : ما ظن خالك عبد الرحمن باللَّه إن ولى هذا الأمر أحدًا وهو يعلم أنه خير منه ؟ فأتيت عبد الرحمن فذكرت ذلك له ، فقال : واللَّه لأن تُؤخذ مدية فتوضع فى حلقى ، ثم ينفذ بها إلى الجانب الآخر أحب إلىَّ من ذلك.

وعن سعيد أن سعد بن أبى وقاص أرسل إلى عبد الرحمن رجلًا وهو قائم يخطب : أن ارفع رأسك إلى أمر الناس ، أى : ادع إلى نفسك ، فقال عبد الرحمن : ثكلتك أمك ، إنه لن يلى هذا الأمرَ أَحَدٌ بعد عمر إلا لَامَهُ النَّاسُ .

ولقد كان رضى اللَّه عنه رقيقَ القلبِ ، شديد الحساسية ، لم يطغه الغنى ، ولم يورثه الكبر ، فالكبر بطر الحق وغمط الناس ، وكان ينظر بإكبار واحترام وعظم مسئولية لمن سبقه من أصحابه ، لقد أُتى عبد الرحمن بطعام وكان صائمًا ، فقال :

(١) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطى (١٥٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبى (٣/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٥٩)، و«مروج الذهب» للمسعودى (١/ ٥٤٣)، و «نظرات فى تاريخ الخلفاء» للدكتور/ محمد أبو يابس (ص ١٢٠ - ١٢٣).

(٢) البخارى (١٢٧٤) .

قُتل مصعب بن عمير وهو خير منى ، كُفِّنَ فى بردة ، إن غُطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه . وأراه قال : وقتل حمزة وهو خير منى ، يعنى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بُسط . أو قال : أُعْطِينَا من الدنيا ما أُعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا . ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام(١) .

ودائمًا ما كانت تجول فى خاطره تلك الأيام الماضية التى حفرت فى ذهنه ذكرى لا تنسى ، فعن نوفل الهذلى قال : كان عبد الرحمن لنا جليسًا ، وكان نعم الجليس ، وإنه انقلب بنا يومًا حتى دخلنا بيته ، ودخل فاغتسل ، ثم خرج فجلس معنا ، وأتينا بصحفة فيها خبز ولحم ، فلما وضعت بكى عبد الرحمن بن عوف ، فقلنا له : يا أبا محمد : ما يبكيك ؟ فقال : هلك رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، ولا أرانا أُخرنا لها لما هو خير لنا .

وطبيعة أصحاب النبى ﷺ الأغنياء كانوا ينظرون إلى قوله تعالى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف : ٢٠] أى : أخذتم مقابل طاعتكم أجرًا دنيويًا ، ثم لا حَظَّ لكم فى الآخرة ، ولكن هؤلاء من أهل الجنة كانوا دائمًا فى ذكر لله وطاعة حتى فى لحظات السعادة ، فلما باع واشترى رضى الله عنه وربح ، ثم لم ينشب أن صار معه دراهم ، فتزوج امرأة على زنة نواة من ذهب ، فقال له النبى ﷺ وقد رأى عليه أثرًا من صفرة : « أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ »(٢).

ولقد خلف ورائه مالًا كثيرًا ، قال أبو عمر بن عبد البر : كان مجدودًا فى التجارة خلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ، وكان يزرع بالجُرف على عشرين ناضحًا .

ولنا عبر وعظات من حياة هذا الصحابى ، فهذه هى حياة الذين بُشروا بالجنة فى الدنيا ، فالمال فى أيديهم ليس لديه إلا أنه وسيلة ، وليس غاية ، فهم الذين

(١) «صفة الصفوة» (ج١/ ص١٣١).

(٢) البخارى (٢٠٤٩)، ومسلم (١٤٢٧).

استخدموه ولم يخدمهم هو له ، ولننظر إليه لحظات الجود فقد يتبرع بكل ماله أو نصف ماله ، وهذا لقوة قلبه فى الاستغناء عن الدنيا ، وتذكره للحظات حسن الخاتمة لأصحابه ، وبكائه على الطعام ، كل هذا وغيره يظهر أن الدنيا فى يد هذا الصحابى لا تؤثر على قلبه ، وليظهر لنا ولغيرنا قوة اعتماده على سعيه ، وأن خيرًا للعبد أن يأكل من عمل يده ، ولم يشغله غناه عن خدمة دين ربه فى أبواب الجهاد ، والتفانى فى خدمة المسلمين ، والدفاع عن النبى ﷺ ، والعوامل التى ساعدت على بناء هذه الشخصية اختيار اللَّه لهم ، واصطفاؤهم على غيرهم ، ورؤيتهم لصنيع النبى ﷺ أمام أعينهم ، وكثرة تفقد النبى ﷺ لأحوالهم ، فما وجد من خير زكَّاه ، وما وجد من غير ذلك قوَّمه وصوَّبه إلى صنيع الخير والبر ، وكثرة ذكرهم لأحداث الآخرة ، جعلهم يزهدون فى الدنيا مع عمارتها .

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِى وَمَالِى وَتَقْوَى اللَّهُ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا
فَلَا تَكُ يَا ابْنَ آدَمَ فِى غُرُورٍ فَقَدْ قَامَ الْمُنَادِى صَاحَ نَادِى
بِأَنَّ الْمَوْتَ طَالِبُكُمْ فَهَيُّوا لِهَذَا الْمَوْتِ رَاحِلَةً وَزَادَا

* * *

[٨] الحوارى الناصر الزبير بن العوام رضى اللّه عنه

قال أهل العلم عن كلمة حوارى : إنه الخالص من كل شىء ، أو الناصر أو الخليل ، ولقد اجتمعت كلها فى هذا الصحابى الجليل الزبير بن العوام رضى اللّه عنه ، حوارى رسول اللّه ﷺ ، ابن عمته صفية بنت عبد المطلب ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورى ، وأول من سلَّ سيفه فى سبيل اللّه أبو عبد اللّه رضى اللّه عنه ، أَسْلَمَ حَدَثًا .

فعن عروة قال : اسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين ونفحت نفحة من الشيطان أن رسول اللّه ﷺ أُخذ بأعلى مكة ، فخرج الزبير وهو غلام ابن اثنتى عشرة سنة بيده السيف ، فمن رآه عجب ، وقال : الغلام معه السيف ، حتى أتى النبى فقال : « مَالَكَ يَا زُبَيْرُ ؟ » . فأخبره وقال : أتيت أضرب بسيفى من أخذك[١].

إنه منذ اللحظات الأولى يبدو وكأنه المسئول الأول عن حماية النبى ﷺ ونصرته رضى اللّه عنه.

وكان من الذين أسلموا على يد أبى بكر رضى اللّه عنه ، وكانت والدته رضى اللّه عنها تضربه ضربًا شديدًا وهو يتيم ، فقيل لها : قتلتيه ، أهلكتيه . قالت :

إِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَىْ يَدُبْ وَيَجُرَّ الْجَيْشَ ذَا الْجُلُبْ

قال : وكسر يد غلام ذات يوم فجىء بالغلام إلى صفية ، فقيل لها ذلك فقالت :

كَيْفَ وَجَدْتَ وبرًا أأقطًا أم تمرًا
أم مُشتمعلًا صقرًا

إنها كانت حريصة على تربيته تربية شديدة قوية منذ اللحظات الأولى فى حياته ، حياة الخشونة والرجولية ، وتحمل المسئولية.

---

(١) الحاكم (٥٥٥١) .

ولقد عانى رضى اللَّه عنه صنوفًا من الابتلاءات بسبب إسلامه المبكر ، فلقد هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان عمه يعلقه ويدخن عليه وهو يقول : لا أرجع إلى الكفر أبدًا.

إن التربية الجادة تتضح فى كلماته وإصراره وتمكن ورسوخ الإيمان فى قلبه رضى اللَّه عنه. ولقد هاجر إلى الحبشة الهجرتين جميعًا ، ولم يتخلف عن غزاة غزاها النبى ﷺ ، وكان عليه يوم بدر ريطة صفراء معتجرًا بها - لف العمامة على الرأس - وكان على الميمنة[١].

وكان يوم بدر مع رسول اللَّه فارسان : الزبير على فرس على الميمنة ، والمقداد بن الأسود على فرس على الميسرة[٢].

وفيه يقال :

جَدِّى ابنُ عَمَّةِ أَحْمَدٍ وَوَزِيرُهُ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَفَارِسُ الشَّقْرَاءِ
وَغَدَاة بَدْرٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ شَهِدَ الْوَغَى فِى اللَّأْمَةِ الصَّفْرَاءِ
نَزَلَتْ بِسِيمَاهُ الْمَلَائِكُ نُصْرَةً بِالْحَوْضِ يَوْمَ تَأَلُّبِ الْأَعْدَاءِ

إنه دائمًا قريبًا من النبى يحوطه وينصره ويدافع عنه ، قالت عائشة يومًا لعروة ابن أختها أسماء : يا ابن أختى كان أبواك تعنى الزبير وأبا بكر من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران : ١٧٢].

ولما انصرف المشركون من أحد وأصاب النبى وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا ، فقال : من ينتدب لهؤلاء فى آثارهم حتى يعلموا أن بنا قوة ، فانتدب أبوبكر والزبير فى سبعين ، فخرجوا فى آثار المشركين ، فسمعوا بهم ، فانصرفوا ، قال تعالى ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران : ١٧٤] أى : لم يلقوا عدوًا[٣].

(١) «صفة الصفوة» (ج١/ ص١٢٨).
(٢) «السير» للذهبى (ج٣/ ص٢٦).
(٣) البخارى (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).

لكن متى حصل على اللقب الكريم ؟ فعن جابر رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه يوم الخندق : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ بَنِى قُرَيْظَةَ » . فقال الزبير : أنا . فذهب على فرس ، فجاء بخبرهم ، ثم قال الثانية ، فقال الزبير : أنا . فذهب ، ثم الثالثة ، فقال النبىّ : « لِكُلِّ نَبِىٍّ حَوَارِىٌّ ، وَحَوَارِيِّى الزُّبَيْرُ »[١] .

ولقد كان رضى اللَّه عنه قليل الحديث عن النبى ﷺ ، فَلَمَّا سأله ابنه عبد اللَّه : مالك لا تحدث عن رسول اللَّه كما يُحدث عنه فلان وفلان ، قال : ما فارقته منذ أسلمتُ ، ولكن سمعتُ منه كلمة سمعته يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[٢] . وما زال الزبير يدافع عن النبى مدافعة شديدة ، فعن عروة أنه قال له : يا أبتِ ، قد رأيتُكَ تحمل على فرسك الأشقر يوم الخندق ، قال : يا بنى رأيتنى ؟ قال : نعم . قال : فإن رسول اللَّه يومئذٍ ليجمع لأبيك أبويه ، يقول : « ارْمِ فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى »[٣] .

ومما يزيدك انتباهًا ويلقى روعة على هذا البطل ، هذا المشهد الذى روى عن عروة قال : كان فى الزبير ثلاث ضربات بالسيف ، إحداهن فى عاتقه إن كنت لأدخل أصابعى فيها ، ضُرب ثنتين يوم بدر ، وواحدة يوم اليرموك[٤] . وقيل : واحدة يوم بدر .

ولقد شهد له النبى بأنه من العشرة المبشرين بالجنة ، فعن عبد الرحمن بن عوف رضى اللَّه عنه أن النبى ﷺ قال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير بن العوام فى الجنة ، وسعيد بن زيد فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة »[٥] .

---

(١) البخارى (٣٧١٩)، ومسلم (٣٤١٥) .

(٢) البخارى (١٠٧) .

(٣) أحمد (١/ ١٦٤) ، وأصله عند البخارى (٣٧٢٠) .

(٤) البخارى (٣٧٢١) .

(٥) الترمذى (٣٧٤٧) ، والنسائى فى «الكبرى» (٨١٩٤) ، وأحمد (١/ ١٩٣) ، وابن حبان (٧٠٠٢).

قال الطحاوى : وقد اتفق أهل السنة على تعظيم العشرة وتقديمهم ؛ لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم[١].

والرافضة قبحهم اللَّه توالى بدل العشرة المبشرين بالجنة الاثنى عشر إمامًا ، وهم : علىُّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه ، ويدَّعون أنه وصى النبى ، دعوى مجردة عن الدليل ، ثم الحسن رضى اللَّه عنه ، ثم الحسين رضى اللَّه عنه ، ثم علىُّ بن الحسين زين العابدين ، ثم محمد بن على الباقر ، ثم جعفر بن محمد الصادق ، ثم موسى بن جعفر الكاظم ، ثم علىُّ بن موسى الرضى ، ثم محمد بن على الجواد ، ثم على بن محمد الهادى ، ثم الحسن بن علىّ العسكرى ،ثم محمد بن الحسن ، ويتغالون فى محبتهم ، ويتجاوزون الحد ، ولم يأت ذكر الأئمة الاثنى عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله ، وهو ما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فسمعته يقول : « لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » . ثم تكلم النبى بكلمة خفيت عنى ، فسألت أبى ماذا قال النبى ﷺ ؟ قال : «كلهم من قريش» ، وفى لفظ : «لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة»[٢]. وكان الأمر كما قال النبى ، والاثنا عشر : الخلفاء الراشدون الأربعة ، ومعاوية ، وابنه يزيد ، وعبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ الأمر فى الانحلال ، وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل فى أيام هؤلاء فاسدًا منغصًا ، يتولى عليهم الظالمون المعتدون ، بل المنافقون الكافرون ، وأهل الحق أذل من اليهود ، وقولهم ظاهر البطلان ، بل لم يزل الإسلام عزيزًا فى ازدياد فى أيام هؤلاء الاثنى عشر[٣].

وَغَدًا تُوَفَّى النُّفُوسُ مَا كَسَبَتْ   وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا
إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِأَنْفُسِهِمْ   وَإِنْ أَسَاءُوا فَبِئْسَ مَا صَنَعُوا

---

(١) «شرح الطحاوية» (ج٢/ ص٣٢٨).

(٢) البخارى (٧٢٢٢، ٧٢٢٣)، ومسلم (١٨٢١).

(٣) «شرح الطحاوية» (ج٢/ ص٣٢٩، ٣٣٠).

ولقد كان الزبير قويًّا فى الحق ، فلقد سأل عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير : يا عروة ، هل تعرف سيف الزبير ؟ قلت : نعم . قال : فما فيه ؟ قلت : فَلَّة فلَّها يوم بدر ، فاستله فرآها فيه ، فقال :

بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ثم أغمده ورده علىَّ فأقمناه بيننا بثلاثة آلاف ، فأخذه بعضنا ، ولوددت أنى كنت أخذته .

ولقد كان هذا الصحابى كالجبل الأشم فى القوة ، وفى نفس الوقت يشهد له أصحاب النبى ﷺ بالخير ، فعن مروان قال : أصاب عثمان رعاف سنة الرعاف حتى تخلف عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش ، فقال : استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ فسكت ، قال : ثم دخل عليه رجل فقال له مثل ذلك ، ورد عليه نحو ذلك ، قال : فقال عثمان : قالوا : الزبير . قال : نعم . قال : أما والذى نفسى بيده ، إن كان لخيرهم ما علمت ، وأحبهم إلى رسول اللَّه ﷺ[١] .

ولقد كان رضى اللَّه عنه من المكثرين من الصدقة ، فبعد بذل النفس فى سبيل اللَّه يبذل ماله وهو راض عن ذلك ، فكان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فلا يُدخل بيته من خراجهم شيئًا ، وكان يتصدق بها كُلها .

ولقد دخل فى الذى حدث بين على ومعاوية رضى اللَّه عنهما ، لكن لما ذكَّره علىٌّ رضى اللَّه عنه رجع ، فعن الأسود بن قيس : حدثنى من رأى الزبير يقتفى آثار الخير قعصًا بالرمح ، فناداه علىٌّ : يا أبا عبد اللَّه . فأقبل عليه حتى التقت أعناق داوبهما ، فقال : أنشدك باللَّه ، أتذكر يوم كنتُ أناجيك ، فأتانا رسول اللَّه ﷺ ، فقال : «تُناجِيهِ ، فَوَاللَّهِ لَيُقَاتِلَنَّكَ وَهُوَ لَكَ ظَالِمٌ» . قال : فلم يَعُد أن سمع الحديث ، فضرب وجهَ دابَّتِه وذَهَبَ[٢] . وفى رواية : قال : نعم ، ولم أذكره إلَّا

---

(١) أحمد (١/ ٦٤)، والبخارى (٣٧١٧).

(٢) الحاكم (٥٥٧٣، ٥٥٧٤).

فى موقفى هذا . ثم انصرف.

وكان يكره الدخول فى غمار هذه الفتن ، فعن مطرف : قلت للزبير : ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة حين قُتِلَ - حين قتل عثمان - ثم جئتُم تطلبون بدَمِه . قال : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] لم نكن نحسب أنا أهلها حيث وقعت منا حيث وقعت[1].

تَرْكُ الْأُمُورِ الَّتِى أَخْشَى عَوَاقِبَهَا فِى اللَّهِ أَحْسَنُ فِى الدُّنْيَا وفِى الدِّينِ

وإن نظرتَ إلى ثقة هذا الصحابى بالله تجده فى الذروة ، فهذا موقف من أعظم مواقفه رضى الله عنه ، فعن عروة بن الزبير قال : لما وقف الزبير يوم الجمل دعانى ، فقمت إلى جنبه ، فقال : يا بنى ، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم ، وإنى لا أرانى إلَّا سأُقتل اليوم مظلومًا ، وإن من أكبر هَمِّى لَدَيْنِى ، أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقِى مِنْ مَالِنَا شَيْئًا ؟ يا بُنَىَّ بِعْ مَالَنَا فَاقْضِ دَيْنِى . فأوصى بالثلث ، وثلث الثلث إلى عبد الله ، فإن فضل من مالِنا بعد قضاء الدين شىء فثلث لولدك ، قال هشام : وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بنى الزبير ، وخبيب وعباد ، وله يومئذٍ تسع بنات ، قال عبد الله : فجعل يوصينى بدينه ، ويقول : يا بنى : إن عجزت عن شىء منه ، فاستعن بمولاى . قال : فوالله ما دريت ما عَنَى حتَّى قلتُ : يا أبة ، من مولاك ؟ قال : الله عز وجل . قال : فوالله ما وقعتُ فى كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير ، اقض عنه فيقضيه . قال : وقتل الزبير ولم يدع دينارًا ولا درهمًا ، إلا أرضين بالغابة ، ودارًا بالمدينة ، ودارًا بالبصرة ، ودارًا بالكوفة ، ودارًا بمصر . قال : وإنما كان الذى عليه أن الرجل يجىء بالمال فيستودعه ، فيقول الزبير : لا ، ولكن هو سلف ، إنى أخشى عليه الضيعَة . وما ولى إمارة قط ولا جباية ، ولا خراجًا ولا شيئًا ، إلا أن يكون فى غزو مع النبى ﷺ ، أو مع أبى بكر وعمر وعثمان ، فحسبتُ دينه ، فوجدته ألفى ألف ، ومائتى ألف (٢,٢٠٠,٠٠٠) ، فلقى حكيم بن حزام الأسدى عبد الله ، فقال : ابنَ أخى ،

(١) أحمد (١/ ١٦٥).

كم على أخى مِنَ الدَّيْنِ؟ فكتمه ، وقال : مائة ألف ، فقال حكيم : ما أرى أموالكم تتسع لهذه . فقال عبد اللّٰه : أفرأيت إن كانت ألفى ألف ومائتى ألف؟ قال : ما أراكم تطيقون هذا ، فإن عجزتم عن شيء فاستعينوا بى . وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف ، فباعها عبد اللّٰه بألف ألف وستمائة ألف ، وقال : من كان له على الزبير دين ، فليأتنا بالغابة . فأتاه عبد اللّٰه بن جعفر ، وكان له على الزبير أربعمائة ألف ، فقال لابن الزبير : إن شئت تركتها لكم . قال : لا . قال : فاقطعوا لى قطعة . قال : لك من هاهنا إلى هاهنا . قال : فأبعه بقضاء دينه . قال : وبقى منها أربعة أسهم ونصف ، فقال المنذر بن الزبير : قد أخذت سهمًا بمائة ألف . وقال عمرو بن عثمان : قد أخذت سهمًا بمائة ألف . وقال ابن ربيعة : قد أخذتُ سَهْمًا بمائة ألف . فقال معاوية : كم بقى؟ قال : سهم ونصف . قال : قد أخذته بمائة وخمسين ألفًا . قال : وباع ابن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف ، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه ، قال بنو الزبير : اقْسِمْ بيننا ميراثنا . قال : لا واللّٰه حتى أنادى بالموسم أربع سنين ، ألَا من كان له على الزبير دَيْنٌ فليأتنا ، فلنقضه . فجعل كل سنة ينادى بالموسم ، فلما مضت أربع سنين قسَّم بينهم ، فكان للزبير أربع نسوة ، قال : فرفع الثلث ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائة ألف ، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف[١] .

الدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ وَالْمَوْتُ ذُو عِلَلٍ والْمَرْءُ ذُو أَمَلٍ وَالنَّاسُ أَشْبَاهُ
وَلَمْ تَزَلْ عِبَرٌ فِيهِنَّ مُعْتَبَرُ يَجْرِى بِهَا قَدَرٌ واللّٰهُ أَجْرَاهُ
يَبْكِى وَيَضْحَكُ ذُو نَفْسٍ مُصرفَةٍ وَاللّٰهُ أَضْحَكَهُ وَاللّٰهُ أَبْكَاهُ

ولقد تعقبه عندما رجع ابن جرموز فقتله ، فعن أبى نضرة قال : جيء برأس الزبير إلى علىٍّ ، فقال علىٌّ : تبوأ يا أعرابى مقعدك من النار ، حدثنى رسول اللّٰه ﷺ : «أَنَّ قاتِلَ الزُّبَيْرِ فِى النَّارِ»[٢] .

ولما قتل جاء إلى مصعب بن الزبير ، يعنى لما ولى إمرة العراق لأخيه الخليفة

(١) البخارى (٣١٢٩) ، وابن سعد فى «الطبقات» (٢/ ٥٨ ، ٥٩) .
(٢) «مختصر تاريخ دمشق» (٩/ ٢٥) .

عبد اللَّه بن الزبير ، فقال : أقدنى بالزبير . فكتب فى ذلك يشاور ابن الزبير ، فجاءه الخبر : أنا أقتل ابن جرموز بالزبير ؟! ولا بشسع نعله.

قال الذهبى : قلت : أكل المغتر يديه ندمًا على قتله واستغفر.

وقتل الزبير يوم الجمل وهو ابن خمس وسبعين ، وقيل : ستين.

والعوامل التى ساعدت على بزوغ نجمه : أن التربية الجادة - بعد فضل اللَّه عليه - أثمرت من قِبل النبى ﷺ وقِبل والدته رضى اللَّه عنها ، ونشأ خدومًا لدين اللَّه ، مدافعًا عن النبى ﷺ ، واثقًا شديد الثقة بربه سبحاه وتعالى ، وكان كما قيل : بما فى يد اللَّه أوثق مما فى يده ، ولعلنا نستفيد شدة ثقة هؤلاء فى اللَّه ، ونتعلم منهم الخير والطاعة ، والحرص الشديد على معالى الأمور .

وإِذَا كَـانَـتِ الـنُّـفُـوسُ كِـبَـارًا   تَـعِـبَـتْ فِـى مُـرَادِهَـا الْأَجْـسَـامُ

والبناء الشامخ هذا ساعد على خروج العظات والعبر لنا فى أبهى حلة ، أن الجهد المبذول فى تخريج دفعات مثل هذا البطل وغيره لابد أن ينظر : أن الشدة فى محلها ، والرفق فى محله ، وصيانة القائد مقدمة على صيانة وحماية الجندى ، والذى تعود على البر والوفاء منذ صغره يكبر عليه ، فمن شبَّ على شىءٍ شابَ عليه ، والثقة باللَّه ، وصدق الاعتماد عليه سبحانه أولى بالمسلم من غيره.

وقد قيل فيه :

إِمَامٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِىِّ وَهَدْيِهِ   حَوَارِيُّه والقولُ بالفعلِ يَعدِلُ

أقامَ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ   يُوالِى وَلِىَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ أعذلُ

هو الفارِسُ الْمَشْهُورُ والْبَطَلُ الَّذِى   يَصُولُ إِذَا مَا كَانَ يومٌ مُحجَّلُ

* * *

[٩] طلحة بن عبيد اللَّه رضى اللَّه عنه

هو طلحة بن عبيد اللَّه ، القرشى التيمى المكى أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من السباقين الأولين إلى الإسلام ، وكان له العديد من المشاهد التى لا يزال التاريخ محتفظًا بها فى ذاكرته .

لقد أبلى طلحة رضى اللَّه عنه بلاءً حسنًا فى الإسلام ، وشهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ ما عدا بدرًا ، وكانت له اليد البيضاء يوم أُحد حيث ثبت مع رسول اللَّه ﷺ ووقاه بيده حتى شُلت إصبعاه ، وأصيب يومئذٍ إصابات بالغة ، حتى دعاه رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد : « طَلْحَةُ الْخَيْرِ » .

ونظرًا لحسن بلائه فى ذلك اليوم ودفاعه المستميت عن رسول اللَّه ﷺ ، كان أبو بكر إذا ذكَر يومَ أُحُدٍ قال : « ذَاكَ كُلُّهُ يَوْمَ طَلْحَةِ » .

ولم تكن مواقفه رضى اللَّه عنه قاصرة على ميدان الجهاد فقط ، لكنه رضى اللَّه عنه كان من أغنياء الصحابة ، وكان يحزن حزنًا شديدًا عندما يرى أحدًا من المسلمين فى فاقة أو حاجة؛ لذا كان رضى اللَّه عنه يكسو عاريهم ، ويُطعم جائعهم ، ويقضى الدين عن معسرهم.

فعن سُعدى بنت عوف قالت : دخل علىَّ طلحة ورأيته مغمومًا ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : المال الذى عندى قد كثر وقد كربنى - أى : أغمنى - فقلت : وما عليك ؟ اقسمه ، فقسمه حتى ما بقى منه درهم.

قال طلحة بن يحيى : فسألت خازن طلحة : كم كان المال ؟ فقال : أربعمائة ألف. ولذا كان رضى اللَّه عنه جديرًا بتسمية رسول اللَّه ﷺ له : بـ« طلحة الخير » .

وتمر الأيام وطلحة بجوار النبى ﷺ ينصره بماله ونفسه ويؤازره حتى تُوفى رسول اللَّه ﷺ وهو عنه راضٍ.

ولم يزل هذا موقفه مع أبى بكر وعمر رضى اللَّه عنهما ، حتى جاءت الفتنة تدب بأوارها فى زمن عثمان حتى قُتل عثمان رضى اللَّه عنه على يد الثُّوار الخبثاء.

واشتعلت الفتنة بين على ومعاوية رضى اللَّه عنهما ، إثر مقتل عثمان رضى اللَّه عنه فرأى طلحة رضى اللَّه عنه أنه من الخير اعتزال تلك الفتن ، إلا أن بعض الناس نسبه إلى التخاذل عن نصرة عثمان ، وأنه كان متحاملًا عليه ، مما دعاه إلى حضور وقعة الجمل.

وحدث لقاءٌ بينه وبين علىٍّ رضى اللَّه عنه بيَّن له فيه علىٌّ موقفه فأدرك طلحة أن عليًّا رضى اللَّه عنه على الحق ، فتأخر طلحة فوقف فى بعض الصفوف فجاءه سهم غرب ، فوقع فى ركبته ، وقيل : فى رقبته فمات ، رضى اللَّه عنه.

وأسف علىٌّ لمقتله أسفًا شديدًا ، ولمَّا رآه مُضرجًا فى دمائه نزل عن دابته وأجلسه ومسح الغبار عن وجهه ولحيته وهو يترحم عليه ويقول : لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا بِعِشْرِينَ سَنَةً .

قال الإمام الذهبى : قاتل طلحة فى الوزر بمنزلة قاتل علِىّ .

وتحققت فيه مقولة رسول اللَّه ﷺ عندما وصفه بأنه شهيد يمشى على وجه الأرض.

فرحم اللَّه طلحة وأسكنه فسيح جناته .

* * *

[١٠] سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى اللّه عنه

إنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ومن لطائف رواياته أنه كان يرفض أن يصرح باسمه ضمن هؤلاء العشرة ، فعن سعيد بن زيد قال : «أبوبكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن فى الجنة ، وسعد بن مالك فى الجنة وتاسع المؤمنين فى الجنة ، ولو شئت أن اسميه لسميته ، فضج أهل المسجد يناشدونه ، يا صاحب رسول اللّه ، من التاسع ؟ قال : ناشدتمونى باللّه ، واللّه عظيم ، أنا هو ، والعاشر رسول اللّه ﷺ ، واللّه لمشهد شهده رجل مع رسول اللّه ﷺ أفضل من عمل أحدكم ، ولو عُمر ما عُمر نوح[١] .

وكان والده زيد بن عمرو ممن فر إلى اللّه من عبادة الأصنام ، وساح فى أرض الشام يتطلب الدين القويم ، فرأى النصارى واليهود ، فكره دينهم ، وقال : اللَّهُمَّ إنى على دين إبراهيم ، ولكن لم يظفر بشرعية إبراهيم عليه السلام كما ينبغى ، ولا رأى من يوقفه عليها ، وهو من أهل النجاة ، فقد شهد له النبى ﷺ بانه يبعث أمة وحده[٢] . وهو ابن عم الإمام عمر بن الخطاب ، رأى النبى ﷺ ولم يعش حتى بعث ، فنقل يونس بن بكير وهو من أوعية العلم ، عن محمد بن إسحاق قال : قد كان فى نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحارث بن أسد ، وعبيد بن جحش ، وأميمة ابنة عبد المطلب ، حضروا قريشًا عند وثن لهم ، كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا أولئك النفر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : تصادقوا وتكاتموا . فقال قائلهم : تعلمن واللّه ما قومكم على شىء ، لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه ، فما وثن يُعبد لا يضر ولا ينفع ؟! فابتغوا لأنفسكم . قال : فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض ، يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها يتطلبون الحنفية ، فأما ورقة

---

(١) أبو داود (٤٦٥٠)، وابن ماجه (١٣٣).

(٢) أحمد (١/ ١٨٩ ، ١٩٠)، وفى إسناده المسعودى اختلط وله شاهد مرسل عن ابن سعد فى «الطبقات» (٢/ ٢٠٤).

فتنصر واستحكم فى النصرانية ، وحصَّل الكتاب ، وعلم علمًا كثيرًا ، ولم يكن فيهم أعدلُ شأنًا من زيد ، اعتزل الأوثان والملل إلا دين إبراهيم ، ويوحد اللَّه تعالى ، ولا يأكل من ذبائح قومه ، وكان الخطاب عمه قد آذاه ، فنزح عنه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء فوكل به الخطاب شبابًا سفهاء لا يدعونه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سرًّا ، وكان الخطاب أخاه أيضًا من أمه ، فكان يلومه على فراق دينه ، فسار زيد إلى الشام والجزيرة والموصل يسأل عن الدين[(١)].

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، واللَّه ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، وكان يحيى المؤودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : مَهْ ! لا تقتلها ، أنا أكفك مؤنتها . فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها[(٢)].

وعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ لِزَيْدِ بنِ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ دَوْحَتَيْن » . وفى رواية « درجتين »[(٣)].

وقد قيل : إنه لما أخبره رجل بخروج النبى ﷺ ورجع قُتل فى الطريق ، ولم يدرك بعثة النبى ﷺ ، ولقد ورد فى الأخبار الصحيحة عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه لقى زيد بن عمرو أسفل بلدح (مكان) قبل الوحى ، فقدَّمَ إلى زيد سُفرة فيها لحم ، فأبى أن يأكل ، وقال : لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ، أنا لا آكل إلا مما ذكر اسم اللَّه عليه[(٤)].

وفى رواية : وكان يعيب على قريش ويقول : الشاة خلقها اللَّه ، وأنزل لها من

---

(١) «السير» للذهبى (ج٣/ ص٧٣، ٧٤).

(٢) البخارى وعلقه (٣٨٢٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٨١٨٧).

(٣) حسن بلفظ : « درجتين » . أخرجه ابن عساكر من الطريق المذكور كما فى الصحيحين (١٤٠٦) بلفظ : « درجتين » . وقال الألبانى: هذا سند حسن.

(٤) البخارى (٣٨٢٦).

السماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم اللَّه ؟! وهو فى البخارى أيضًا . ولا يلزم أن النبى ﷺ قبل البعثة كان يذبح عند الأصنام ، أو يأكل مما أهل لغير اللَّه به .

وجو كهذا ينشأ فيه الولد الصالح ، والابن البار ، سعيد بن زيد صاحب قصتنا على يد أب حريص على الخير قبل معرفته وتنقله من مكان لمكان ، هذا يبذر فى قلب ابنه سعيد قبول الخير ، والاستعداد للتضحية فى سبيل الإسلام .

ولقد أسلم سعيد ، وكان من السابقين لهذا الخير والنور ، وظل مع النبى ﷺ حتى هاجر للمدينة ، وعُدَّ سعيد بن زيد فى البدريين ، فقال : قدم من الشام بعد بدر ، فكلم رسول اللَّه ﷺ ، فضرب له بسهمه ، وآجره . وهكذا قال بعض علماء السير .

ولقد أسلم سعيد قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم ، وقال : لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى على الإسلام وأخته ، ولو أن أحدًا انقض بما صنعتم بعثمان لكن حقيقًا .

ولقد كان سعيد رضى اللَّه عنه مستجاب الدعوة ، وعاملًا بحديث النبى ﷺ ، فعن هشام ابن عروة ، عن أبيه ، أن أروى بنت أويس ادَّعت أن سعيد بن زيد أخذ شيئًا من أرضها فخاصمته إلى مروان ، فقال سعيد : أنا كنتُ آخُذُ من أرضها شيئًا بعد الذى سمعتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! سمعتُه يقول : « مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ » قال مروان : لا أسألك بينة بعد هذا . فقال سعيد : اللَّهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها ، فما ماتت حتى عميت ، وبينا هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفرة فماتت .

ولكن لِمَ لم يعد من أهل الشورى رضى اللَّه عنهم الذين ترك لهم الوصية عمر ، قال الذهبى : لم يكن سعيد متأخرًا عن رتبة أهل الشورى فى السابقة والجلالة ، وإنما تركه عمر رضى اللَّه عنه ؛ لئلا يبقى له فيه شائبة حظ ؛ لأنه ختنه وابن عمه ، ولو ذكره فى أهل الشورى لقال الرافضى : حابى ابن عمه ، فأخرج منها ولده وعصبته ، فكذلك فليكن العمل لله[1] .

---

(١) «السير» للذهبى (ج٣/ ص٨١).

يقول صاحب صور من حياة الصحابة :وضع سعيد بن زيد طاقاته الفتية الشابة كلها فى خدمة الإسلام ؛ إذ إنه أسلم وسنه لم تجاوز العشرين بعد ، فشهد مع رسول اللَّه ﷺ المشاهد كلها ، إلا بدرًا ، فقد غاب عن ذلك اليوم؛ لأنه كان فى مهمة كلَّفَه إياها النبى ﷺ ، وأسهم مع المسلمين فى استلال عرش كسرى ، وتقويض ملك قيصر ، وكانت له فى كل موقعة خاض غمارها المسلمون مواقف غُرٌّ مشهودة وأياد بيض محمودة ، ولعل أروع بطولاته تلك التى سجلها يوم اليرموك ، قال سعيد بن زيد : لما كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا ، أو نحوًا من ذلك ، فخرجت لنا الروم بعشرين ومائة ألف ، وأقبلوا علينا بخطى ثقيلة كأنهم الجبال ، تحركها أيدٍ خفية ،وسار أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسيسون يحملون الصلبان ، وهم يجهرون بالصلوات فيرددها الجيش من ورائهم وله هزيم (صوت الرعد) كهزيم الرعد ، فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه هالتهم كثرتهم ، وخالط قلوبهم شيءٌ من خوفهم ، عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحض المسلمين على القتال ، فقال :عبادَ اللَّهِ ، انصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم ، عباد اللَّه ، اصبروا ؛ فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالتروس ، والزموا الصمت إلا من ذكر اللَّه عز وجل فى أنفسكم ، حتى آمركم إن شاء اللَّه ، قال سعيد عند ذلك : خرج رجل من صفوف المسلمين ، وقال لأبى عبيدة : إنى أزمعت على أن أقضى أمرى الساعة ، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول اللَّه ﷺ ؟ فقال أبو عبيدة : نعم ، تقرئه منى ومن المسلمين السلام ، وتقول له : يا رسول اللَّه ، إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا . قال سعيد : فما إن سمعت كلامه ورأيته يمتشق حسامه ويمضى إلى لقاء أعداء اللَّه حتى اقتحمت إلى الأرض - رميت بنفسى بشدة إلى الأرض - وجثوت على ركبتى وأشرعتُ رمحى وطعنت أول فارس أقبل علينا ، ثم وثبتُ على العدو وقد انتزع اللَّه كل ما فى قلبى من الخوف ، فثار الناس فى وجوه الروم ، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب اللَّه للمؤمنين النصر[(١)].

---

(١) «صور من حياة الصحابة» (ص ٢٣٧، ٢٣٨).

وكان عاقبة ظلمهم للناس وغيرهم زوال ملكهم الغاشم على يد المسلمين ، ومنهم سعيد بن زيد رضى اللّه عنه ، فالسيل اجتماع النقط .

إِذَا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ بَعْدَهُمْ شُهُودٌ عَلَيْهِمْ وَلَا تُتَّهَمْ

وشهد سعيد فتح دمشق بعد ذلك ، فلما دانت للمسلمين بالطاعة جعله أبو عبيدة ابن الجراح واليًا عليها ، فكان أول من ولى إمرة دمشق من المسلمين ، وهنا ندلف إلى صفحة أخيرة من حياته ، فلقد مات بالعقيق ، فحمل إلى المدينة ، ونزل فى حفرته سعد وابن عمر ، وذلك فى سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة[١] .

والعوامل التى خرجت لنا هذا المبشر بالجنان ، وبرب راضٍ غير غضبان ، اصطفاء اللّه له ، ثم تربية على الخير على يد أبيه ، ثم مجىء النبى ﷺ فصادف نور الوحى نور الفطرة فاتَّحَدَا ، فكان العمل للّهِ ولخدمة دين اللّه ، ومع مرور المراحل من ابتلاء وهجرة معارك وانتصار وتمكين لم ينس اللّه سبحانه وتعالى ، فكان ما كان من فضله .

أما المستفاد من سيرته رضى اللّه عنه فما أدراك ما منزلة عبد يدعو فيُستجاب له ، إنه كان قريبًا من دين اللّه يسمع فيجيب ، ويستغرب كيف يفعل أمرًا حذره منه النبى ﷺ فهل كان هذا يجيد المعاصى ؟ لا واللّه ، ولنقتفى أثر هذا الصحابى فهو المبشر بالجنة ،ولا يُبشر بالجنة إلا القليل ، فاللّهم اجعلنا من الأقلين الذين

(١) «صفة الصفوة» (ج١/ ص١٣٦ ، ١٣٧).

يرزقون الاقتداء بالصالحين ، والدخول فى زمرتهم ، واللحوق بركبهم ، اللَّهم آمين .

مَا بَالُ دِينُكَ تَرْضَى أَنْ تُدَنِّسَهُ   وَثَوْبُكَ الدَّهْرَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِى عَلَى الْيَبَسِ

* * *

الفهرس

* * *